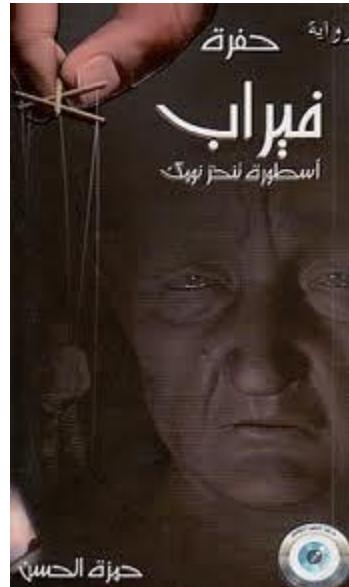


رواية

حفرة في راب



حمزة الحسن: 'حفرة فيراب' حيث دفعنا جميعا

الروائي العراقي حمزة الحسن يستنجد بالقديس كريكور ليفسر فترة ما قبل الاحتلال الأميركي للعراق وما بعده.

ميدل ايست اونلاين

عن الرماد وعن الحب

عن دار نشر مركز الناقد العربي . دمشق . صدرت رواية "حفرة فيراب" للروائي العراقي المقيم في المنفى حمزة الحسن. وصف الحسن "حفرة فيراب" بأنها "الحفرة التي دفعنا إليها جميعا".

فيراب هي الحفرة أو الزنزانة التي طمر أو سجن فيها القديس كيركور الذي تحمل كنيسة الارمن في الباب الشرقي في العاصمة العراقية اسمه، من قبل الملك الارمني في القرن الثالث بعد الميلاد لانه رفض تقديم الذبائح للالهة أوهاید التي لا تنسجم مع معتقداته الدينية واستمر ذلك ثلاث عشرة سنة حتى اخرج منها بعد مرض الملك.

رواية "حفرة فيراب" في الوقت الذي تستدعي فيه التاريخ، لكنها تتعرض، جوهرًا، لفترة ما قبل الاحتلال وما بعده: وهي حلقة من سلسلة رواية للروائي الحسن بدأت برواية "صرخة الطريق" ورواية "حارس السلالة" ورواية "حقول الخاتون" ورواية "طريق الكراكي" وتتناول الجذور الحقيقية للاحتلال من منطقة تفكير وتخيل وتحليل مختلفة

عن وسائل الاعلام.

قال الحسن عن روايته بانها تصف "مجتمعا على وشك التداعي مع سلطة وحشية تدفعه لمزيد من السقوط، فالمخلوقات المهانة والمهمشة لا يمكن أن تخرج لصد غزو." أضاف "في حفرة في راب حكايات عن القديس كريكور الذي تم تفجير الجدار الخارجي لكنيسة في ساحة الطيران بسيارة مفخخة"

الرواية تتحدث عن "الدرويش راوي الحكايات المقيم في قلعة كركوك هاربا من الجنوب، وعن الراوي الذي عاد من المنفى، خائبا، ليجد مدننا مزالة، يبحث عن قبر مفقود لحب ضائع: راوي الحكايات الذي هرب من الفاشية ليقع في حفرة العنصرية، عن الجنرال الاميركي الذي دخل الكنيسة في الصباح في حين كان المطران يسقي الزهور في حديقة منزله ويطعم العصافير، وخوري الكنيسة يراقبه من نافذة غرفة الحرس العليا." يصف الحسن روايته بانها "عن الرماد وعن الحب، عن كركوك . المدينة واحتمالات المستقبل المرعبة . عن القديس والجنرال والراوي والدرويش، عن الخراب والقيامة، عن مذبحة مضت وأخرى قادمة، عن الأمل والحنين: ما أكثر الحنين، ما أكثر الرماد".

تاریخ الحفرة عریق: من بئر یوسف إلى بئر دانیال، ومن یونس في بطن الحوت إلى القذافي في مجاري الصرف الصحي، ومن بئر أرمیا إلى حفرة الدكتاتور العراقي، ومن بئر یوحنا الصليب في ظلمات طليطلة إلى الحفرة التي وقعا فيها الیوم. تفكیک الحفرة وليس غزو الفضاء هو ما نحتاجه الیوم. المدن الخائفة مسلوبة الوعي والإرادة وتسلم نفسها بسهولة، وإلا كيف استطاع أخرين في هذه الروایة أن یعری ويکشف عن

هشاشة هذه المدن وأن يكون صانع الأحداث الوحيد والراوي الوحيد أيضاً؟

كيف يكون الآخرين سارداً؟ هذا هو التحدي في هذا النص وخارجه أيضاً.

نبت في المقهي في الصباح كما تنبت الأسئلة ونباتات البرية وجروح
الليل وظل جالسا في زاوية المقهي كمسمار في الكرسي القديم
الذي شكل مع معطفه العسكري الأخضر الشاحب الطويل بلون
غسق مسائي كئيب وشاحب صورة أقرب ما تكون الى تمثال
كلسي لرجل يتکئ على يده كي يتوازن وربما كان نائما أو ذاهلا
أو أي شيء آخر في حين كانت رائحة الهواء المبلل ببرطوبة النهر
القريب تعطر المقهي، والسوق المسقوف كما في كل صباح.

كان من الواضح للأرماني أن هذا المعطف الخاكي العشبي اللون
وبصفين من الأزرار النحاسية والجيوب الواسعة على جانبيه، هو
من مخلفات الجيش الملكي، ولو لا الثوب الأبيض الطويل الذي
يلتصق بجسد صاحبه، ويتنافر مع هذا المعطف المنقرض والمختفي

من الاستعمال، لفكر صاحب المقهى على نحو مختلف، لكنه الآن يشعر أن هذا الزائر الصباغي الغريب يخرج من حكاية قديمة من زمن تلاشى ليجلس على هذا الكرسي على هيئة صامدة منكسرة وهو معلب داخل هذا المعطف الأخضر الذي بدا من النظرة الأولى كما لو انه خرج الآن من مخزن قديم من مخازن الجيش أو من أي مخزن آخر.

حين اقترب منه ليسأله عما اذا كان يشرب شايا أو قهوة أو أي شيء آخر، لم يلق ردا، لكن المعطف تحرك قليلا، ومع حركة المعطف في نزوله الى الأسفل، أسفل الكرسي، تحركت في الوجه الحجري عينان حادتان منهكتان من سفر طويل أو من ألم داخلي أو نعاس ثقيل.

حاول أن يقول شيئاً، أي شيء، لكن حشرجة صدرت من قلب المعطف، صوت أقرب ما يكون إلى العواء أو النحيب، وأمسك بقوة بمعطفه كما لو أنه يستنجد به على النطق. قال الأرمني بصوت مسموع كي يساعده على التوضيح: (تسمع؟). رد صاحب المعطف وقد سمع رنين الأزرار النحاسية بهزة من رأسه دون أن يقول شيئاً. قال صاحب المقهى: (اذن انت تسمع، ولكنك لا تتكلّم). رنت الأزرار النحاسية بالطريقة نفسها وبهزة الرأس نفسها، فقال صاحب المقهى وهو يتلقى نسائم النهر في هذا الصباح الغريب كما لو كان يحدث نفسه: (آخر لكته يسمع).

بما ان الأرمني يعرف زبائن المقهى بل كل أهل البلدة سواء الذين جلسوا عنده أو الذين مرروا بالسوق الكبير، الا ان هذا الزبون

الصباحي غير معروف لديه، كما لو أنه طائر هبط فجأة في المقهى. لم يكن الأرمني يحمس أن هذا الزائر الغريب سيسمى في السنوات القادمة: "بريد السنونو" ويكون جزءاً من تاريخ المقهى، ومن تاريخ السوق، بل تاريخ البلدة.

ظل جالساً في كرسيه كما لو انه يخشى لو تحرك قليلاً لأن يكسر شيئاً أو يطرد الا عند حلول الظهيرة حين فرغ السوق من حشود الناس الذين يلوذون في هذا الوقت بالحيطان من هجير الظهيرة ونار الشمس الحرقـة عائدين الى منازلهم، ويخلو السوق الا من أصحاب الدكاكين الذين يستلقون تحت المراوح ويصبحون جزءاً من أثاث المحلات والظلـال الباردة المنطرحة فوق أرضية السوق حيث حزم أشعة الشمس تخترق السقف من ثقوب لا ترى وتشكل ظلالاً مختلفة الأشكال.

خطر للأرمني أن يسأله من أين جاء وأين يريد؟ لكنه أجل السؤال، فصاحب المعطف الملكي، فكر الأرمني، سوف لن يجد مكاناً يأوي

اليه الا المقهى، وهو أمر حدث عدة مرات في هذا السوق الكبير
الذي يأوي في حجراته مشردين ومحانين وتائهين وشعراء معتوهين
بل وحتى الكلاب والقطط والعقارب والأفاعي والطيور والسنونوat
التي تختفي في الشتاء لتعود في الربيع حتى ان الأرمي نفسه كان قد
كتب عبارة تحت عش سنونة قرأها يوما في مجلة عن أغنية اسبانية
تقول: ايتها السنونة، متى تعودين الى عشك؟

حين عادت ضجة السوق مرة أخرى، عصراً، عند بروادة الهواء
والطرق ومسامير الأبواب . آب يشوي المسamar في الباب ، كما
يقول المثل . كان صاحب المعطف الملكي قد شرع بدون تكليف
من أحد برفع أقداح الشاي وتنظيف الطاولات وتنظيم الكراسي
وكنس الأرض وغسل مسـانـدـ الأـرـائـكـ.

كان يقوم بكل ذلك صامتا دون أن يخلع معطفه الذي اثار دهشة وسخرية وسؤال بعض الزبائن: هل السيد صاحب المعطف الملكي مبعوث جلالة الملك من القبر؟ هل خرج من المتحف الملكي؟ اين عشر على هذا المعطف الذي يبدو جديدا؟. ولم يكن الأرمني يرد على هذه الأسئلة متظاهرا بالعمل، لكن صاحب المعطف الملكي كان يسمع هذه الأسئلة كما لو أنها تتحدث عن المعطف وليس عنه هو. فما علاقته هو بمعطف الملكي؟

آخر الليل، اللحظة التي يخشاها المشرد والتائه والغريب، جلس صاحب المعطف منكفئا كغصن مرمي، في حين كان الأرمني يتهدأ لغلق المقهى. ظهرت كلاب السوق، ثم برزت من الظلال العميقه الآن قامة لکائن خرج من عتمة في جدار السوق، ثم مرق قط

مفروع، ورفف جناح طائر في عش في أعلى السقف. مخلوقات منتصف الليل بدأت تدب في السوق: (تستطيع أن تبيت هنا الليلة. هل تسمع؟ لا تخف. خلف تلك الباب مرحاض ومطبخ صغير. يمكنك النوم هناك أو هنا على الأرائك اذا شئت. كل وأشرب ما تريده. لن يفتح المقهى حتى الفجر. هل تفهم؟) أومأ له بالايجاب.

سمع صرير باب المقهى وهو ينزل كستارة حديدية، وأصغى لخطوات صاحب المقهى وهي تغوص عميقا في جوف الليل، وقبل أن يغمض عينيه، سمع نباح كلاب، ومواء قطط، وخطوات تعبر السوق متعرجة وتحتفي خلف أبواب تفتح بصرير موحش، وأغنية ريفية تأتي من حائط في جدار السوق أو من قلب عزلته الموحشة. حاول أن يقول شيئاً، لكنه أطلق عواءً طويلاً قبل أن يغفو على

صدى الأغنية وهي تختلط بنباح الكلاب ومواء القطط وخطوات
متعثرة تعبر السوق وتحتفي كظلال الليل.

قبل أن يكمل أحلامه الليلية الطويلة والمرهقة والمبتورة، سمع صرير
باب المقهى، وشاهد وجه صاحبه في ضوء الفجر الناعم، وشم
رائحة أعشاب نهرية في الهواء. كان ينام على أحدى الأرائك
منطويًا على جسده كما يلتفي حيوان غابي على نفسه من المطر
والبرد والريح: (هل نمت جيداً؟) هز رأسه.

قال صاحب المقهى : (جلبت لك معي هذه الملابس . هذه السترة أفضل من هذا المعطف الحار والثقيل والنشاز . ليس من المعقول أن تلبس معطفاً ملكياً ونحن نعيش في زمن جمهوري . دع هذا الثوب وخذ هذا البنطال . انه على مقاسك).

تورد وجهه ولاحت لأول مرة ابتسامة عذبة من أعماق وجه محمد كضفاف شواطئ جافة . فكر الأرمني مع نفسه انه لا يستطيع تحديد عمر هذا الكائن لأن الوجه مغطى بطبقة كثيفة من التجاعيد والخطوط والجروح من كثرة الطرق والأدغال والحداول والبراري والأرصفة والحقول التي عبرها . تناول إفطاره بصمت . حين نبهه الأرمني الى انه من الممكن أن يرتدي السترة الآن كي يرى كم هي مناسبة عليه ، هز رأسه ، نفي .

خرج منه عواء حاد وهو يشير الى البسطال، ففهم الأرمني انه موافق على لبسه، لكن المعطف لن ينزعه. وفكرة صاحب المقهى بينه وبين نفسه انه كان قد عرف هذا النوع من الجنون أو الهيام في لبس ثوب أو سترة واحدة في كل المواسم، وكان قد شاهد ذلك على جسد مصطفى ترك الجندي العثماني الذي تخلف عن الانسحاب الى تركيا في الحرب العالمية الأولى وعاش هنا كسائق أحراة وهو يرتدي معطف الجيش العثماني في غالب الأيام حتى صارت رائحة المعطف تترك لدى مرورها رائحة عفنة من عرق وغبار ورغبات صدئة يمكن لزبائن المقهى معرفة مصدرها بدون رؤية وجه مصطفى ترك.

قال الارمني كما لو أنه تذكر شيئاً : (سيكون اسمك منذ اليوم سنونو. هل يعجبك هذا الاسم؟). واستدرك صاحب المقهى

قهائلاً: (هل رأيت طائر سنونو من قبل؟). أومأ برأسه بالايحاب.
هتف صاحب المقهى بفرح : (اذن، هو الاسم المناسب. هل
تعرف لماذا؟ عندي سنونوة تختلف عن الجيء هذا الربيع من الهند
ووجهت أنت بدها. هو اسم جميل. لا تقلق).

تذكّر ان سنونوته كانت تصاب عند ظهور الغيوم القطنية البيضاء
وسقوط أول أوراق الخريف بتشنج يجعلها تدور في حركات طيران
دائريّة حادة قبل موعد الهجرة ولم يكن يعرف، الا حين أخبره
مستشاره في كل شيء الطيب البسطري، طبيب الأسرة وخبرير
الطقس وشئون الغرام وأخبار الحرب، إن طائر السنونو يفرز
هرمونات استعدادا للسفر وتتواعد أسرابه فوق أسلاك الكهرباء
اوآخر شهر أيلول، وقال له إن السنونو حتى لو وضع في مكان
دافيء في الشتاء، فإن احساسه الداخلية تخبره بموعد السفر.

حاول الأرمني أن يرسخ الاسم فصاح من أعماق غرفة خلفية عبر باب في الجدار:(سنونو، لماذا لم تأكل شيئاً في الليل?). لم ينتظر جوابا لأنه في كل الأحوال لن يقول شيئاً وان حاول أن يرسم شارة في الهواء تدل على انه نام. أراد أن يقول انه نام على نباح كلب وأغنية ريفية وخطوات متعرجة في السوق وأفاق على بقايا أحلام مشتتة، لكنه لم يقل كلمة في النهاية:(سنونو، أنت منذ اليوم صديقي وستعمل معي في المقهى. لكن ما حكاياتك مع هذا المعطف؟ الناس في هذا الصيف تهرب من جلودها وانت مكبوس في هذا المعطف الملكي. هل تحب هذا المعطف؟) أو مأله بالايحاب:(أين عثرت عليه؟) مد يده الى بعيد: (هناك؟ اين هناك؟) تساءل الأرمني لكنه لم يحصل على غير هذا الجواب فصمت إشارة الى مكان بعيد وهو الجواب نفسه الذي حصل عليه

حين سأله من أين جاء وأين ولد؟ عقب الأرمي ضاحكا وهو يغسل الصحون والاقداح ويشعل وجاق النار: (السنونو طائر ذكي ويعرفالأمكنة. انت تقول انك جئت من "هناك" أي من البرية. لكن البشر لا يولدون في البرية).

وتذكر الأرمي حكاية الصبية صُفَيَّة التي بزغت في مساء صيفي يمامي من البرية قبل عدة سنوات وعاشت دون أن تتذكر شيئاً من حياتها السابقة. لكن الأمر، فكر الأرمي، صعب مع رجل مثل هذا السنونو. حاول أن يعيد النظر في الاسم كي لا يكون مادة للتندر بين الزبائن وغيرهم. فكيف يمكن لسنونو أن يكون على هذا الشكل المزري، وبهذا المعطف العسكري الأخضر الذي يكفي

لأخفاء بعير؟

هبت نسائم النهر وغرق الأرمني في همومه، في حين كان سنونو يغسل المقهى وهو يراقب حركة السوق التي تصاعدت مع الوقت. حين امتلأ المقهى بالزبائن وهم عادة من أصحاب محلات أو الجنود أو الصيادين وال فلاحين القادمين مع بضائعهم من الريف وعمال التنظيف وبعض موظفي الدولة، صاح الأرمني كإعلان عن اسم النادل الجديد: (سنونو، خذ هذا الشاي لعمك في الزاوية. سنونو، قدح ماء للأستاذ الذي يقرأ الجريدة. سنونو، هات، خذ، امسح، تعال...). علق زبون ضاحكا: (تقول سنونو؟ اذن ماذا ستسمي الثور?). لم يرد الأرمني لأنّه يعرف أنّ هذا أمر طبيعي أول الأمر ثم ينسى الناس تحت مشاغلهم اليومية حتى انفسهم. قال الاستاذ الذي يقرأ الجريدة: (قل لي سنونو، بروح جدك، أليس هذا هو معطف الملك فيصل الثاني?). رد الأرمني: (هو لا يتكلّم، ولكنّه يسمع). علق صياد سمك وهو يغادر المقهى الى النهر،

ضاحكا: (لو كان العكس، لكان افضل. ماذا يسمع في هذا الزمان؟). قال الأرمني كما لو انه لم يسمع: (هل تعرف اننا نسمى السنونو بطير السعد؟ حين يموت ملك يتتحول الى سنونو وتظل روحه مرفرفة. انت الان ملك حقيقي بمعطف ملكي). ضحك سنونو ، فتلاشت من الوجه المجد ملامح طرق وغابات وبراري وأرصفة وصفاف وأدغال كثيفة ووحول وأشواك وليلياً أرق ورغبات متعفنة.

حين جاءت ساعة منتصف الليل، وجهز الأرمني نفسه لغلق المقهى، قال: (يمكنك أن تنام في الغرفة الصغيرة خلف المقهى. لا حاجة للنوم في المعطف لأن رأحته تصبح كريهة مع الوقت. يمكن أن تلبسه في الصباح اذا شئت. هل تريد شيئاً؟) رد بالنفي. قال الأرمني: (طيب، مع السلامة).

سمع صرير باب المقهى ينزل بقوة هذه المرة، وخطوات الأرماني
تضرب فوق الأرض وتض محل، وتناهي نباح كلب خلال مروره
بالسوق، ثم صوت خطى مبعثرة تكاد أن تكون الخطى نفسها
وهي تدخل في شقوق الجدران، لكنه لم يسمع اليوم تلك الأغنية
الريفية القادمة من أعماق السوق أو أعماقه، لكنه سمع حشرجة
تخرج من روحه تختلط بعواء ذئب بعيد. عواء قادم من غابة عريقة
أو صرير حراء متلاشية.

قال الأرمني وهو يندس في الفراش لزوجته بما يشبه الهمس: (هذا السنونو يشير حيرتي). ردت الزوجة المذهلة: (هل جنت؟ أي سنونو؟) لم يكن قد أطلعها بعد على حكاية الزائر الغريب الذي أطلق عليه لقب سنونو. قال موضحا: (رجل مشرد دخل المقهى صباح البارحة، أخرس لكنه يسمع، لا أعرف من أين جاء وain ولد. قررت أن ينام في المقهى. تبدو عليه ملامح شباب لكنه هرم من إهانة وتشرد. انت تعرفين أن السنونوة لم تعد هذا الربيع. أطلقت عليه اسم سنونو تيمناً). لم تقل الزوجة شيئاً ولكنها شعرت بساق الأرمني الحارة تتحنك بجلدها كما يتحنك جواد بجذع شجرة طرية حتى النزف والصهيل لكنه يختلف كثيراً عن عواء ذئب قادم من أعماق غابة أو صحراء متلاشية.

قالت زوجة الأرمني لحارتها عبر الحدار في الصباح وهي تسألهما عن

الرجل الذي سلمها سلة التسوق:(هذا سنونو. يقولون إنه درويش وملاك. جاء من البراري وسكن في المقهى. منذ أن دخل السوق والناس تشعر بالبركة والخير. طير سعد، يقولون). ردت الجارة مندهشة: (ماذا يقول؟) أجبت زوجة الأرمني مفتخرة: (لا يتكلم ولكنه يسمع. قال حارس ليلي لزوجي إنه سمع عواء ذئب من داخل المقهى بعد منتصف الليل) .ردت الجارة وهي تزداد ذهولا:(هذه عالمة على الطاعون). صرخت زوجة الأرمني مذعورة:(أي طاعون، الله لا يوفقك، هل رأيت معطفه الأخضر الملكي؟ انه من سلالة علوية. كيف انت مسلمة?). قالت الجارة بما يشبه الاعتذار:(ملكي؟ كيف لي أن أعرف وأنا ولدت بعد سقوط الملكية. حقا كان معطفه أخضر. في المرة القادمة بلغيني كي امسح به ثيابي...) وصمتت حياءً ثم أضافت: (أنت تعرفي السبب. قد أرزق على بركته).

صار سنونو يطير، صيفاً وشتاءً، في شوارع البلدة، حاملاً هذه
السلة أو تلك، إلى هذا البيت أو ذاك، ومع السلال يحمل رسائل
أو قصاصات ورق عن طلبات أو مواعيد وحتى تهديدات أو رسائل
غرام مشفرة أو عن بضائع وعن رغبات، وحتى لقاءات سرية
لعشاق وقد عرف بالكتمان الشديد ولم يتسرّب سر رسالة أو خبر
ابداً حتى انهم أطلقوا عليه لقب: بريد السنونو. هو البريد الوحيد في
العالم الذي لا يخضع لـ كل أنواع الرقابة.

مع الأيام، وذيوع صيته، وانتشار أسطورة الدرويش المقدس،

وصاحب البركات، ومحقق الأحلام، وصانع المعجزات، صار يدخل في بيوت عوائل محافظة غنية وفقيرة، وتحول معطفه الملكي الأخضر الى مزار للتبرك والتلمسح من قبل نساء فاتنات، كان بعضهن يدعونه الى السرير ويتعرّين تماماً وهو يفتح فوق بريّة الشراء والبياض كجود يخبط في سهل محترق وتحت حوافره يتكسر حجر ناعم حار، ومعه تتكسر في داخله رغبات كثيرة مؤجلة ومتفسخة.

الرجال يسألون الأرمني في السوق عن السنونو كي يرسلوا سلامهم الى البيت، مع ان السوق يتعجب بأصحاب عربات التسوق، وصارت النساء، خاصة الفتيات، يجلسن على عتبات البيوت في انتظار بريد السنونو، حتى موزع بريد البلدة الوحيد صار ينتظر مروره على نار كي يرسل معه موعده الغرامي الاسبوعي قرب قنطرة خضراء على جدول صغير، بعد حلول الغسق.

بعد منتصف الليل غادر الأرمني السوق ومشى بخطواته الثقيلة البطيئة المتعبة، فسمع سnono من خلف باب المقهى صوتا رخوا لأحد سكارى السوق الذين يخرجون في هذه الساعة من الليل من شقوق الجدران مع الكلاب والقطط يقول: (لو تكلمت يا سnono يوما، فستكون فضيحة مدوية). جفل وفكر مع نفسه: هؤلاء السكارى وحدهم ليس لديهم من يراسلونه. لكن من يدري؟ هل هو البريد الوحيد في هذه البلدة؟ وفي ليلة أخرى سمع هذا الفحيح خلف باب المقهى بعد منتصف الليل: (لم يبق أحدا لم تضاجعه عدا الأشجار). لكن كل هذه الصيحات والهواجس والشكوك والشائعات تختفي في ضجة الحياة اليومية وتلاحق الأحداث.

تمكن من شراء دراجة هوائية وصار يطير بها على طرق الريف حاملا المدايا والرسائل والوصايا والمواعيد، وكان مروره العابر والبرقي المثير يحدث في القلوب نشوة تشبه نشوة عيد متنقل. كان يسمع اصواتاً مختلفة مبتهجة من كل مكان، من الشرفات والنواذ والسيارات والأبواب: "بريد السنونو! بريد السنونو!". أما هو فكان يحلق في الطرق وخلفه يطير ذيل معطفه العسكري الأخضر، هويته الوحيدة في الصيف والشتاء، الذي لم يخلعه مرة واحدة منذ جاء هذه البلدة قادما من البرية، الا عند النوم كما طلب منه الأرمني: (السنونو مر من هنا) أو: (هذه دراجة السنونو). في أعماق ليلة وهو بين اليقظة والنوم سمع هذا الصوت كثعبان يزحف على رقبته من خلف باب المقهى: (سنونو، أنت الأب الحقيقي لنصف أطفال البلدة ولكنك وحيد).

صرخت زوجة الأرمني يوماً حين تسلل زوجها إلى الفراش وهو يطلق شرراً من كل مسamas جسده من التعب: (أنت أطلقت في البلدة ثوراً في حقل أبقار. سنونوك الدرويش تحاوز كل الحدود). حين سألهما ماذا فعل هذا المسكين، ردت غاضبة: (مسكين؟ لو لم أكن واثقة من نفسي لقلت لك إن أبنك الوحيد منه). عندها بزغ من عيني الأرمني ثعبان أصفر وكان مستعداً تلك اللحظة لتفويض السوق الكبير التاريخي المبني منذ أكثر من قرن. قال وهو يفح: (لكن لماذا هو بالذات؟ هل شيء به حلاوة وعسل؟). ردت الزوجة بقوة: (غموض الرجل وصمته والحكايات التي دارت حوله كدرويش وعلوي وملكي واضح الخ..). قاطعها وهو يتأملها لأول مرة خلال هذا الحديث: (لكنك أول من اشاع عنه هذه القداسة

والرجل مشرد ومسكين). قالت بأسف: (لم أكن متصرفة ان الأمور تصل هذا الحد. ماذا نعمل؟) رد الأرمني وقد رق مزاجه فجأة على فكرة شيطانية طارئة : (لن نعمل شيئاً. ليفعل ما يشاء. هو لم يخترع اللبن. لم يخترع شيئاً غير موجود. هل نسيت ماذا فعلت هذه البلدة؟).

تذكرت زوجة الأرمني، تلك اللحظة، أمه العميماء، الحسناء، المشردة، وهي تلتحف بالحيطان من البرد والمطر والجوع في أربعينات القرن العشرين وفي حضنها الطفل، منتصف الليل، حين كان عليه القوم والسكارى يأخذونها الى بيوت خاصة ثم يقذفونها في الغبش الأزرق الى الشوارع مع الطفل الباكى. قالت الزوجة وقد عادت من الذكرى بصوت واهن حزين: (انت، اذن، تنتقم؟) رد حالا: (أبدا. أنا آخر من علم منك. هذا عقاب عادل لبلدة يتباها رجاتها في

المقهى بعدد من ناموا من النساء في حين تطحن زوجاتهم تحت رحى مشرد وضائع). وأضاف ضاحكا في هذا الجو الغريب: (سنونو هو ملك حقيقي ولو على درجة هوائية). وحين علقت زوجته بذات اللهجة: (هذا طائر السعد الذي وعدتنا به؟) كان هو يحرث في أرض تزداد بكرًا كلما حرث أكثر وأعمق وأقوى وأعنف وتوعّل في الحريق البهي).

صرخ شخص ما من خلف شرفة: (السنونو مر من هنا). كان مروره اليومي في الشوارع يطغى على أخبار الحوادث والزواج والموت وال الحرب كما لو ان الناس بحاجة لحكاية غامضة تنسفهم هموم الحياة وحوادثها، أما هو فلم يكن مشغولا بشيء محدد في هذه البلدة التي صار يكتب سيرتها الذاتية الحقيقية بجسده دونما حاجة الى لغة. ما فائدة اللغة حين تصبح جدارا بين الناس ويصبح الخرس لغة للتفاهم؟ لو لم يكشف زيفها صاحب المعطف العشبي سنونو، لكشفه اعصار أو مجزرة أو طوفان أو حريق هائل. لو كانت هذه البلدة متصلة، لما عراهـا مشـرد أخـرس.

هذا بريد السنونو . قالت عجوز وهي ترفع ستارة النافذة للصغار المتدافعين في الغرفة في حين كان آخر ما رأوه هو ذيل معطفه العسكري الأخضر يطير في الهواء كمروحة خضراء في حكايات الأطفال. نادته فتاة بهمس خافت: (سنونو، توقف، ارجوك) توقف حالا . قالت: (اسمع، ليس عندي ورقة. سأكتب على بطنه معطفك وانت تعرف أين تذهب. "من خ. ع. الى فراشة قلبي. الساعة مليون. قرب القنطرة بعشرة أمتار. تعال فور قراءة الرسالة على ويدية).

حين مر من أمام مقاهي النهار في الشوارع المفتوحة، تبعه شاب على دراجة: (سنونو، عيني، توقف) توقف فورا: (اسمع، خذ هذه الوردة الى س. ل. سأكتب لك على بطنه المعطف " يحتاج الى

لسعاتك يا بعوضة قلبي"). ويوما صادفه تاجر الحبوب الشهير في
البلدة وهو يخور كثور ذبيح صارخا: (توقف، سنونو، الله يباركك،
احمل هذه الرسالة الى صاحب المطحنة....) وراح التاجر الغاضب
يبحث عن مكان فارغ في بطانة المعطف وكتب: (أنتظر وعدك اليوم
أو أحفر قبرك). كان سنونو يعرف مكان كل رسالة وصاحبها
والمرسل اليه وهو لا يُرى الا الشخص المعنى الجزء الخاص به
ويحجج بقية رسائل.

بعد منتصف ليلة وهو يشرب الشاي والكلاب تنبح في سوق
القصابين سمع هذا الفحيح من وراء باب المقهي: (كل أسرار البلدة
في معطفك). تلك كانت المرة الأولى التي شعر أن هذا المعطف
صار عبأً ثقيلاً عليه وفكراً في التخلص منه لكنه قرر غسله وحكه
بحجر صلب كي يتخلص من كل هذه الرسائل المبثوثة في ثناياه

كوشم على جلد. لكن الرسائل تعود مرة أخرى، وأخرى، وفي كل مرة يتحول المعطف إلى بريد متنقل وهو يطير في الشوارع على دراجته وصدره إلى الأمام كصقر محلق في فضاء أزرق ومفتوح.

فتح باب المقهى ذات فجر ودخل الأرمني صارخا كالعادة: (سنونو؟). لم يرد ولم يخرج أحد. لم يكن هناك أي سنونو لا في العش المهجور منذ الربيع ولا في الغرفة الخلفية ولا على الارائك. وفكر الأرمني بحدث زوجته عن غزواته الغرامية. قال يحدث نفسه ربما يكون قد أخذه النوم ورقد في سرير إحداهن أو أنهن كبسوه في واقعة غرام ودفن حيا. عند منتصف الظهيرة، والكلاب تلهث من الحر اللاهب، بزع وجهه سنونو كوجه جرو ناقع في الدهن. كان شاحبا شحوبا ميتا وضائعا وتالفا. هزه الأرمني بقوة: (ماذا جرى؟).

في الأيام الأخيرة توصلوا إلى تفاهم كامل عن طريق الاشارات والكلمات المبهمة المتحشرجة التي كانت تصدر من أعماقه الموصلة على الجميع. بعد عشرات العلامات والخشيجات والرموز والاسارات فهم الأرمني ان سنونو قضى ليلة مشؤومة في دائرة الأمن. كانوا يريدون منه أن يتكلم. فهم الأرمني منه بوضوح انه من شدة الضرب حاول فعلاً أن يتكلم لكنه كان يصدر بدل ذلك عواً قال عنه أحدهم : (هذا من سلالة ذئاب أو كلاب وحشية). شرح ذلك للأرمني المذعور. حاولوا بكل مكبرات الصورة قراءة العلامات والرسائل داخل بطانة المعطف لكنهم لم يعثروا على شيء لأنه غسل المعطف للمرة الخامسة قبل يومين. قبل أن يطلقوا سراحه طلبوا منه أن يريهم عضوه . حين رأوه صاح أحدهم كما لو كان يطلق صفاره إنذار: (هذا خرطوم فيل).

تلك كانت المرة الأولى التي يتعرى فيها سنونو أمام رجال وقد شعر ببرودة مخيفة تزحف فوق جسده وتحول مع الوقت إلى رعشة تشبه رعشة طائر يحتضر بين جوارح. فكرالأرمني ان سنونو قد جرح في أعماقه أكثر من كل سنوات التشرد والضياع والطرق والأدغال. قال له مؤاسيا:(لا تفكر بهذا كثيرا. انه يحدث مع غيرك).

ذلك النهار لم يخرج من المقهى وانزوى في الغرفة الخلفية حتى منتصف الليل حين سمع صوت صرير الباب ينزل كقضبان حديدية تهبط بقوة ووحشية، وسمع ايضا أنيينا خافتا يخرج من قلب معطفه الساخن متزجا بعواء ذئاب بعيدة خلف المقهى، خلف السوق، خلف النهر، خلف شقوق الجدران التي ينبثق منها رجال غامضون

آخر الليل، لكنه سمع مرة أخرى تلك الأغنية الريفية وهي تندلع
داخل السوق كحريق له لون المعطف.

لم يظهر سنونو في البلدة، وبدا ان الزمن قد توقف، أو أن الايقاع
المتناغم والمتوازن والرتب والسالم لدرجاته الهوائية وهي تحلق في
الشوارع قد توقف فجأة، كما لو أن الحياة نفسها، الحياة الأخرى،
الخفية، الملائكة بمسرات ومباهج ومشاجرات طريفة ومواعيد غرام، قد
أصييت بالعطب، وعليهم التعايش مرة أخرى مع وجه الحياة
المنفر: (هل رأيت سنونو؟) أو: (هل من خبر عن بريد السنونو؟).
أو: (الأفضل أن نسأل الأرماني).

لكن الأرماني نفسه قد احتفى هو الآخر. حتى زوجته لا تعرف
شيئاً عنه. قيل إنه خرج إلى البرية مع سنونو في غusc رماني، وقيل

ومثل كل الواقع الغريب في هذه البلدة، ظهر الأرمني يمشي في شارع البلدة الرئيس متسلماً. في الحقيقة يمكن القول إن الذي ظهر يمشي هو أرمني آخر غير صاحب المقهى المعروف. هذا الشبح الماخي كظل لا يمت بصلة إلى ذلك الرجل القوي الصلب صاحب القامة المنتصبة كرمح عتيق وثمين وأصيل. الشيء الوحيد الباقي من الأرمني القديم هو الحذاء الأسود الشهير ذي الصرير الموسيقي الرتيب والحزام الجلدي الأحمر الذي خاض به كل معاركه. عدا ذلك لا شيء من شخصيته القديمة.

لقد تم تقليله إلى أصغر حجم ممكن تحت تأثير قوة جهنمية غامضة. حين طرق الباب وخرجت زوجته متلهفة أو شكت على طرده أو سؤاله عن زوجها المختفي. لكن هويته الشهيرة . الحذاء . هي التي جعلتها تفتح الباب مولولة صارخة تنكث شعرها الأسود الفاحم الحريري المنسدل على كتفيها كشلال ماء على منحدرات صحرية ملساء.

هذه الانوثة الضاجة هي التي أعادت للأرماني بعض ذاكرته، فحشرج كديك مبحوح:(إلى السرير، بروح حدرك التافه). توكل عليها دون أن تفهم شيئاً من الأمر الأخير الصادر منه وحين تمدد على السرير وحاولت تغطيته، انقض عليها ممزقا الثوب الأبيض الشفاف كي يندلق اللحم البعض الشهي وهو يعتصره بضراوة في

حين كانت تستلقي تحته من الذعر والشهوة والصدمة وكان يردد
كالمجنون وهو يسحق جسدها بقوة : (يسقط الحزب ! يسقط
الحزب!). حين خمدا معا، وساد صمت طويل، سمعا باندهاش هذا
الصوت القادم من زاوية الغرفة:(يسقط الحزب...). كانت ذلك
الصوت صادرا من بيغاء أخضر اللون يشبه معطف سنونو المشؤوم،
حتى اضطروا في الايام التالية الى حبسها في مكان بعيد كي لا
يسمعها زوار المنزل، وفشلوا معها كل محاولات التلقين لحملة
أخرى كما لو أن ذاكرة البيغاء توقفت، كذاكرة الأرمي، عند ذلك
اليوم القرمزى.

قالت له زوجته:(خذها الى البساتين وأطلقها). رد عليها
بهلع:(وماذا لو وقفت فوق بنية الحزب وهي تغرد بهذا الهاتف
القاتل؟). قالت الزوجة:(وكيف سيعرفون أنها لنا؟) قال لها حالا:(إذا

اقترب من قفص الbingاء الذي وضع هذه المرة في قن متزوك للدجاج
وأغلق فمهما وجاء بها الى غرفة النوم. نظر في عينيها بتحمّل وشراسة
وهو يردد : (عاش الرئيس! عاش الرئيس!). انتظر انبثاق معجزة في
اللحظة الأخيرة قبل أن يصدر بحقها فعلا حكم الموت. تحركت

البغاء وأدارت ظهرها له وهي تطلق ذرقة ذهبياً من أكل اللوز في وجهه وهي تصيح: (يعيش الحزب! يسقط الرئيس!).

احتقن وجهه كضفدع وهو ينقض عليها في القفص ويقاد أن يسحقها بقبضته المضمومة والتفت الى زوجته الذاهلة وهو يقول غاضباً: (عقلها كعقلك، متعلم على الخطأ والعناد. عاشت معك عدة سنوات وصارت صورة عنك). وأضاف: (لو ظلت على الهاتف الأول، لكان ذلك أهون. تصوري انني محاصر بين سنونو مشبوه وبين ببغاء عنيد. الأول قادني الى حفلة تعذيب والثاني يريد أن يقودني الى حفلة موت. سنونو احتفى مرة أخرى).

في مساء ربيعي عذب، والماهبي ضاجة بالناس على جانبي الشارع
الرئيس في البلدة، والمصابيح مضاءة بلون غسقي متوج، ينتشر
على الأشجار والجدران والنوافذ والوجوه، ويعطي الجميع هوية
أخرى، أكثر دفناً وعمقاً وهدوءاً، ظهرت دراجة هوائية من النهاية
البعيدة للشارع، آخذة في الاقتراب، فدارت الرؤوس كما لو أنها
تتابع حركة أحدى النجوم وهي تقترب من الأرض، لكن الدراجة
حين تقترب، تذوب في المدى المنظور وتتراجع وتحلل إلى خيوط
وتفاصيل وأشلاء ولا تتقدم كما أنها لا تتراجع، كما لو أنها
تسمرت في الضوء المسائي الرخو، أو أنها تحلق في نقطة معينة لا
تغادرها، ولم يعد هناك أي صوت في صفوف المماهبي على الجانبيين
عدا التنفس المتشنج والمترقب والبطيء والمحذر، حتى صار ضوء

المصابيح العمومية آزا بأنين مكتوم وداخلي، لكن ظهر بعد لحظات أن الدراجة تقترب فعلاً من المكان وإن كانت لا تقترب كثيراً حتى تذوب في الضوء الشفاف السائل من مصابيح معلقة في فضاء مساء ربيعي يسكر النحل والخيول والأزهار والبشر. قبل أن تلوح ملامح الدراجة كاملة، ظهر، كنيزك، اللون الأخضر الشاحب العشبي للمعطف الملكي والأزرار النحاسية وهي تلمع في العتمة. أاهرة.

كان المطر ينهمر فوق سطح السوق في الفجر ويترك أنيابا مكتوما في صفائح الألمنيوم أو في الخشب حين فتح باب المقهى وأطل الأرمي على معطف أخضر ينزاح قليلا عن الأريكة. فز سنونو واستدار برأسه نحو الخطوات المحترسة وفرك عينيه كي يستوعب صورة الشبح القادم الذي كان يتضخم ثم يصغر حتى تكشفت عالم الأرمي وهو يقف فوق رأسه كشراع مكسور تسيل من فوق ثيابه قطرات مطر ثم تناسب إلى الأسفل وتساقط فوق المعطف الأخضر الذي تفوح منه مع رائحة المطر رائحة جسد بشري عطن معتق. قال الأرمي بحنان وهدوء: (لا حاجة للشرح. أعرف كل شيء. أخذوك مرة أخرى. هل كان ذلك بسبب النساء؟). هز

سنونو رأسه بالنفي. واصل الأرمني:(اذن بسبب المعطف؟). أومأ سنونو برأسه بالإيجاب. تابع الأرمني:(اذهب الى الغرفة الخلفية وتناول فطورك. تصرف كما في أي يوم آخر. هل تشكو من شيء؟ الم مثلا؟) أومأ سنونو بالإيجاب. قال الأرمني:(وأنا كذلك. ييدو أنهم سيصنعون منا وحوشا). قال ذلك وانصرف يرتب الكراسي والطاولات والأرائك ويشعّل نار الوجاق، في حين كان نور الفجر يتسلل الى السوق على صوت مطر مكتوم ورتيب ومتواصل يختلط بآذان الفجر القادمة من مئذنة الجامع.

فكر الأرمني في رؤية الواجهة الداخلية للمعطف الأخضر لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، وكان سنونو الآن يرتدي معطفه، أو بالعكس، وهو يصغي لصوت المطر، آذان الفجر، الأنين المكتوم

للخشب والصفائح، ويرى الضباب الداخل من جهة النهر الى السوق ودراجته الهوائية تستند على أحد الكراسي كجود نائم من سفر طويل. قال الأرمني ضاحكا: (سمعت انك الأب الحقيقي لنصف أطفال البلدة. هل هذا صحيح؟). ضحك سنونو في هذا الجو المعتم والكتيب والتف أكثر بمعطفه وانسل الى الغرفة الداخلية عبر الباب الضيق في حين كان ضوء الصباح يملأ السوق وترتفع معه ضجة يومية أليفة. في هذه اللحظة دخل العجوز الصياد سلمان وهو يتمتم بكلمات مبهمة وجلس دون أن يلقي تحية الصباح. قال سلمان وهو ينظر الى دراجة سنونو : (هل عاد أخيرا؟) رد الأرمني بتأفف: (نعم). قال سلمان وهو يسحب كيس التتن من جيب سترته الداخلية: (كيف حال الببغاء؟). جفل الأرمني وتعثر بأقرب كرسي وهو يرد من دون تفكير: (الببغاء؟ ماذا بها؟). قال العجوز الصياد الذي لا يزال عكر المزاج من هذه اليقظة

المبكرة: (سمعت انها قادرة على تلاوة النشيد الوطني من أوله الى
آخره) رد الارمني: (هذا ليس صحيحا. من منا يحفظه حتى تتمكن
ببغاء من ذلك؟ هل ستذهب الى الصيد في هذا الجو الماطر?).
وكما لو أن العجوز سلمان لم يسمع، قال:(لو ترك سنونو يعمل
معي في الصيد؟) أجاب الأرمني: (سنونو لا يعمل في النهر).
عقب سلمان الصياد:(أعرف. ليس في النهر حوريات). شرب
شاي على عجل وحمل حقيبة كبيرة على ظهره واختفى في عطفة
السوق الذي بدأ يضج بالناس والأصوات والريح.

كان سنونو يطير كالعادة فوق الشوارع بدرجته المعهودة وصرخات الأطفال في الطريق الى المدارس تلاحقه:(سنونو عاد!). سنونو عاد!). حين صار فوق الطريق الرئيس المؤدي الى جسر البلدة، مرقت بجانبه أكثر من جنازة مغطاة بالعلم الوطني. فكر على نحو مشوش: ماذا لو أرسلوه الى الحرب؟ وعندما اندلع صوت الأرمني في داخله:(نحن في أكثر من حرب، يا سنونو). كان يشم رائحة الأشجار والمطر والعشب ويرى نوافذ المنازل مضاءة بضوء نهار طري ويقترب من النهر وهو ينظر الى غابات النخيل البعيدة وهي تشكل حزاماً أخضر يصعد حتى السماء والطيور تحلق في سماء مشرقة بعد مطر عنيف وقارب الصيادين ساكنة فوق سطح الماء المشع بضوء حار يعكس هامات الأشجار والضفاف والأدغال القرية وقامات الصيادين وميز بينها قامة العجوز سلمان وهو

ينحنى على شباك الصيد وحيدا في قاربه وحده شجرة في بريهه أو طريق مهجور الا من الغبار والغربان والمطر وضوء النجوم.

حدث نفسه من فوق دراجته المنطلقة في دروب ريفية مفتوحة بين صفوف الأشجار المورقة بالضوء والمطر والبراعم: (سنونو، كيف تذهب الى الحرب اذا كنت لا تملك اسمها ولا أوراقا رسمية عن الولادة والسكن والعائلة؟ لا تملك غير هذا المعطف العسكري الأخضر المشبوه تبرع به لك عسكري عجوز متلاحد صادفك نائما يوما تحت مظلة محل مغلق في الفجر. من قال ان سنونو اسمك الأول والأخير؟). تحاشى في الدرب قطيع أبقار وخطرت له فكرة الرعي في البرية لكنه فكر في أن مهنة درويش أو ولی صالح مفيدة أكثر من اية مهنة أخرى. هذه البلدة، أعطته اسمها، لكنه سلبها كل

الأسماء. وحده سنونو صاحب المعطف الملكي الأخضر العشبي المشبوه برسائل الغرام وربما في غيرها يحكم هذه البلدة حين ينام الرجال. وحده الملك الحقيقي على رعية غافية بين اقدام النهر واقدام الحرب. فكر على نحو خاطف وكريه: ماذا سيفعل لو انه تكلم يوما؟ وماذا سيقول وهو أكثر الذين يتكلمون اليوم بلا لغة؟ بل هو المتكلم الوحيد في بلدة مصابة بالخرس.

لاح له الجسر الطويل معلقا في الفضاء الأزرق الشفاف بين غابات عامرة بالنور والماء والخضرة والسر، وخطر له أن حياته صارت معلقة كاجسر بين ضفتين: بين درويش أو ولي صالح مقدس، وبين آخرس وشريد وأعزل، بين ذكر يفح في أسرّة النساء المتسللات من الرغبة والبركة والمعجزة، وبين سنونو معلق الأطراف الى مروحة في السقف من أجل رسائل غرام أو رسائل سياسة لا يفهم منها شيئا.

كالزجاج المنكسر، سمع الأرماني صوت قلبه يسقط على الأرض،
حين خطر له أن أحداً ما في السوق ذكر اسم الببغاء. ماذا لو
فرت الببغاء خارج القفص والقن وحلقت في سماء البلدة وحطت
فوق بناياتها وهي تغدر بذلك الهاتف اللعين الذي أطلقه هو بنفسه
في لحظة غير متوقعة وفي مكان غير مناسب؟. خيل إليه ضجة
أقدام راكضة وان شخصاً ما يهتف بكلمة ببغاء. هذه الكلمة تعني
عنه الموت، شنقاً، أو التذويب في حوض للتيزاب أو يجد نفسه
هذه الليلة في ضيافة تمساح أو فهد أو نمر أو ثعبان أو كلاب
وحشية. راح خياله المذعور والمشتت يلقي في نار مخيلته كلمات
وصوراً مرعبة كما يلقى الحطب في فرن مشتعل.

تخيلهم الآن يطاردون الببغاء فوق بناية الحزب أو مبني البلدية.
تخيلها تحلق عائدة الى المنزل كي تبصم على شهادة موته المهلك.
ففكر في غلق المقهى منتصف النهار والعودة الى البيت لكنه انتظر
سماع أنباء دقيقة من خارج رأسه الذي صار في الآونة الأخيرة يرسم
له مشاهد يوم قيامة أرضية لم تكن تخطر له على بال.

ففكر في سنونو . الذي يطير الآن فوق دروب الريف . وفكرا في عدد
الأطفال الذين كان الأرمني نفسه سبباً في قدومهم الى هذا العالم
حين قبل يوما إيواء هذا الفحل المشرد، وذهل كيف أنه لم يفكر
يوما في العالم السري لهذه البلدة المغطاة، كأشجار النهر في الغبش،
بغشاء رقيق جدا من الضباب والزور والصدأ؟ هل كان الأمر يحتاج
حقا الى هذا السنونو البائس كي نعرف صورتنا الأصلية؟ وفي البلدة
أكثر من ألف سنونو يعيشون فسادا فيها بكل أنواع الفساد؟ لماذا،

فَكِرْ الأَرْمَنِيُّ الَّذِي صَارْ يَقْرَأْ كَثِيرًا بَعْضَ الْمَحَلَاتِ الطَّبِيهِ السَّهْلَةِ
الْقِرَاءَهُ كَيْ يَتَخَلَّصُ مِنْ مَشَكْلَهُ الْقَدْفُ السَّرِيعُ التِّي تَرَافَقَهُ مِنْذَ أَنْ
أَكْتَشَفَ ذَكْورَتِهِ وَهَنَى الْيَوْمُ، لَا تَبَدُّو حَقَائِقُ حَيَاتِنَا بِهَذَا الْوَضُوحِ
إِلَّا فِي حَفْرَهُ الْخَرَاءِ الَّتِي عَرَاهَا سَنُونُو؟ هَلْ سَنُونُو قَدْرُ أَمْ عَقَابُ أَمْ
مَصَادِفَهُ؟

فِي هَذِهِ الْلَّحْظَهُ كَانَتِ الدَّرَاجَهُ طَيْرُ، مَحْلَقهُ، فَوقَ دُرُوبِ الْرِيفِ،
وَسَنُونُو يَمْضِي مَأْخُوذًا بِعَالَمِ الْأَشْجَارِ وَالدُّرُوبِ وَالْجَدَالِ وَالْأَزْهَارِ
وَالرَّوَاحِ كَمَا لو اَنَّهُ يَكْتَشِفُهَا أَوْلَى مَرَّه. فَكِرْ فِي الأَرْمَنِيِّ الطَّيْبِ
الَّذِي آوَاهُ وَتَحْمَلُ مِنْ أَجْلِهِ الْكَثِيرَ بِمَا فِي ذَلِكَ التَّعْذِيبِ وَالسِّجْنِ
وَالْأَذْلَالِ وَمَعَ ذَلِكَ تَمْسِكُ بِهِ حَتَّى الْيَوْمِ بِصَبْرٍ وَهَدْوَهٍ. إِنَّ الأَرْمَنِيَّ،
فَكِرْ سَنُونُو، لَمْ يَتَحَدَّثْ وَلَوْ مَرَّهُ وَاحِدهُ عَنْ مَاضِيهِ أَوْ أَسْرَتِهِ وَلَا
عَنِ الْأَيَامِ الْقَادِمَهُ. لَقَدْ تَساوَى مَعَهُ فِي الْخَرَسِ وَالنَّفَيِّ وَالْحَلْمِ

والتعذيب. إن الشيء الوحيد الحقيقى في حياته هو المقهى وحين يغلقه آخر الليل، تكون الحياة قد توقفت حتى فجر اليوم القادم. هذا هو أيضا وجه سنونو الآخر. لكنه سمع في الأيام الأخيرة حكايات كثيرة عن أم الأرمني العميماء والحسناء والتي تحولت مع الطفل الصغير الأرمني نفسه الى وليمة لكتار القوم، كبار القوم الذين فتك بهم هو نفسه سنونو الآن، والى سكارى منتصف الليل، ثم ترمى مع الطفل كنفافة الى الشوارع الماطرة والموجلة والوحشة لائفة بالحيطان من البرد والجوع والمطر والذل. ألم يسمع سنونو نفسه قول قارئ القرآن ذات فجر من فوق المئذنة:(وما ربك مهلك القرى، لو لم يكن أهلها ظالماً)؟

ف Kramer على غير توقع بصراخ أمه وهي تسحل من جوار الجدران منتصف الليل، تحت المطر، وهو يلوذ بها، لوذ الحمام بمنائر

الأضرة، وخطر له ان سنونو هو طوفان أو حريق أو نسمة، أما هذه الببغاء فهي الشيء الوحيد الذي صار يخشاه أكثر مما يخشى الموت لأن الموت، وسمع ذلك من خبازة البلدة وهي في الطريق إلى الفرن ذات فجر تكلم نفسها: (الموت مكب الذهب). الموت وليس الاذلال.

قرر الأرمني اليوم أن يسكر وينام في المقهى، فهي المرة الأولى في حياته التي يشعر بصداقه حقيقة مع إنسان، واشتري لذلك زجاجة عرق عراقي ماركة زحلة التي تسكر الشيران والفيلة والخيول والقنافذ. تذكر ضاحكا كيف انه في يوم ما، يوم قديم، أجبر قنفذا على شرب الخمر وفتح فمه بالقوة، وبعد لحظات صار القنفاذ يمشي طليقا كملك حقيقي وقد خرج من قوقعته الشوكية حتى تداعى، ميتا. فكر الأرمني في ضجيج السوق والمقهى ولهب الوجاق: لماذا

لا نخرج من جلوذنا الا حين ننسى كر؟

قبل منتصف الليل وقفت الدراجة الهوائية في السوق الفارغ الا من بقايا الأوراق وعلب الكارتون والأطعمة والنفايات، ونزل المعطف الملكي الأخضر بهدوء ورصانة لكنه دهش لأن الأرمني يستلقي على السرير في الغرفة الداخلية وعلى الطاولة زجاجة خمر وسلطة خضار وزيتون ولبن. قال الأرمني وقد تبدل صوته تماماً، كما لو أنه حبس هذا الصوت سنوات طويلة: (سنونو، تعال نشرب الليلة). لم يقل سنونو شيئاً لكنه أدخل الدراجة الهوائية وأغلق باب المقهى من الداخل وجلس قبلة الأرمني المدق في الجدار المعلقة فيه صور مطربات وراقصات وممثلات في أوضاع عارية ودراجات نارية وهوائية ونماذج سيارات وبنيات وبحيرات وحدائق خلابة ساحرة وجبال وصحاري ومساجد أثرية قديمة وكنائس في كهوف حجرية

ومحطات قطارات ومطارات وسواحل وخجان ومشاهد حرب وجنس وصورة قديمة للبلدة ملتقطة في أوائل القرن العشرين وتظهر فيها نساء يحملن أوعية الماء من النهر، وفي خلفية الصورة بالأبيض والأسود يظهر شريط الأشجار البعيد ملتصقا بالأفق . لم تعد الأشجار موجودة الي يوم ولا الأفق.

كطائر صحراوي عشر على بركة ماء، شرب سنونو كأسه وهو يطلق عواءً طويلاً كما لو أنه يتآلم من حريق أو وجع مباغت أو ضربة طارئة وقابله الأرمني بالتحية المماثلة حتى تقضى نصف الليل وزحف الفجر من خلف نافذة الغرفة الخلفية. روى الأرمني حكايته الطويلة المريعة مع العمى والجحش والحائط والاغتصاب والمطر والجوع والبكاء، وروى سنونو طرق البراري ونساء البلدة والمعتقل والريف

قال له سنونو على طريقته إنه يعرف أشياءً كثيرة عن الأمر، عن العمى والحمل والحائط والجنون، وقال له إنه في بعض الليالي يجعل نساء عليه القوم يتعرّين أمامه تماماً ويطلب منهن أن يرقصن عاريات ويركعن تحت قدميه ثم يتركهن ذاهلات دون أن يفعل شيئاً. قال له إن واحدة منهن وهي زوجة مسؤول كبير كانت تلحس جسده من الأعلى إلى الأسفل وهي تنسج باكيه قائلة: (هو الآن في فندق خمس نجوم مع زوجة صديق). قال له، راقصاً، إن

زوجة المقاول صاحب العمارة الجديدة على النهر قد أنجبت منه طفلا وهي تصر على أن تكون ذريتها من سلالة درويش، وروى كيف ان بعض الرجال يدخلون معه الى حمام المنزل ثملاين وهم يديرون ظهورهم المشعرة متسلين. سنونو يروي والأرمني يصغي، مصعوقا، حتى جاء صوت من خلف باب المقهى المغلق أو من داخل حواسه المضطربة: (سنونو، الحرب هنا وليس في الحدود). انقطع الصوت وتعالى صوت المطر وهو ينقر صفيف السقف والخشب ويترك أنيما حادا طويلا كقطار يطلق صفارته في برية مفتوحة على اللي——ل والنج——وم والرم——ل.

نهض الأرمني متوكئاً على طاولة صغيرة وهو يقول بلسان رخو لكن بانتشاء وسعادة: (لن نفتح المقهى اليوم. خذ المفتاح وتصرف كما تشاء). ثم غادر المقهى متربحاً على ضوء الفجر الأزرق وروائح عطر

الأشجار والنهر والضباب والعشب ، في حين كان السوق قد بدأ
يدب بالحركة.

صرخت زوجة الأرمني وهي تفتح الباب(البيغاء!، البيغاء!) ولم يرد
الأرمني كما لو انه لم يسمع. ولولت الزوجة مرة أخرى وهي تنكش
شعرها لحثه على الكلام:(البيغاء هربت). رد عليها الأرمني بهدوء
بارد مخيف: (أعرف). حدقـت فيه بعينين جامدتين من الذعر وبقايا
أرق ليلي طويل:(كيف عرفت؟) أزاحـها عن طريقه وهو يمضي الى
غرفة النوم وقال تحت مشاعر غامضة امتلأـ بها ولم تعهدـها
فيه: (سمعت ذلك من الجن الأزرق). وكما لو أنها تناـطـب شخصا
غريبا دخل المنزل هـزـته بعنـف قائلـة: (أين كنت؟). لم يتـأـخر في الرد

وهو يتمدد على السرير المبعثر كساحة لأحلام لليلة ثقيلة: (في حلم طويل). وسمعته يضحك ضحكة طويلة محلجة قبل أن ينام: (الأول مرة ارى الحياة بهذا الجمال). ضربت يدا بيده وهي تحدث نفسها مذهولة: (ليس هو الرجل الذي عرفته). قالت متذكرة: (لكن ماذا سنفعل مع البيغاء؟)، وكما لو كان يكلمها عبر أستار وجدران، قال دون أن يفتح عينيه: (ليست وحدتها تطير في هذه البلدة).

عاد الأرمني طفلا صغيرا يركض في شوارع أخرى الى جوار أمه التي زال عنها العمى كما زال عنه هو عمامه كل هذه السنوات، كما لو انه انتظر كل هذا العمر كي يرى بهذا الوضوح. صحيح ان سنونوته لم تعد من الهند هذا الربيع هربا من الصيف الهندي الساخن، لكن صديقه الآخرس الذي دخل المقهى في صباح غريب، صاحب المعطف الملكي الأخضر، أدخله في السر والمعتم والمغضى والمخفي.

وماذا عن الببغاء يا أرمني؟ الى الجحيم بكل شيء. سوف تظل
تطير من بناية الى أخرى كما عشنا نطير من زمن الى آخر. هذه
الببغاء هي وجهنا الآخر. لماذا زوجتك حزينة ومذعورة؟ ماذا
سيحصل في النهاية؟ حين علقوك في المروحة شاهدت وجوها قديمة
من زمن الطفولة وهم ينتزعونك من صدر الأم من تحت جدار
وتحت مطر وتحت سماء بلا قلب. ماذا تبدل يا صاحب المقهى
العتيد في السوق؟ خللت الأفاعي صلالاً كما يخلف السحاب
المطر، والليل النهار، والحياة الموت، والخوف الأرق. سنونو هذا يا
أرمني هو أكبر من درويش. هو الطوفان الذي يكشف متانة
السدود والمطر الذي يعرى السقوف والفحجيعة التي تكشف صلابة
القلب. لا تخف على هرب ببغاء. لا يخيف الأجرب أكل البصل.

ناهـت ضـحة السـوق إلـى سـمع سـنونـو وـهـو يـتأمـل جـدار الغـرفة
الـخلفـية المـطلـة عـلـى خـلاء تـكـوم فـيـه نـفـاـيات وـمـنـاضـد مـرمـية وـأـرـائـكـ،
وـتـنـتصـب فـيـه نـخـلة حـفـرت عـلـى جـذـعـها تـذـكارـات عـلـى شـكـل قـلـوبـ
وـسـهـام وـوـجـوه مـبـعـثـرة وـطـيـور بـأـجـنـحة مـتـكـسـرـة وـعـلـامـات غـامـضـةـ
وـعـصـي وـأـسـلاـك وـقـضـبـان حـدـيد وـنـوـافـذ غـير مـكـتـمـلـة وـشـمـسـ مشـتـتـةـ
وـقـمـر مـلـون بـصـبـغ أحـمـر بـعـثـره المـطـرـ.

خيل اليه انه يسمع صليل فتح باب المعتقل يوم قبض عليه تائها في
شوارع بغداد ولم يكن يحمل معه أوراقا تثبت هويته الا هذا المعطف
الأخضر. حين دخل بوابة المعتقل (سمع ان اسمه الحارثية) شعر انه

ضاع الى الابد. وجد نفسه في حشد هائل من الأشباح والثياب
الممزقة والجنود المخمورين في علبة صفيح كما لو أن الهواء قد أفرغ
من المكان وصار يحاول التقاطه بأصابعه.

داخل علبة الصفيح هذه، لم يجد مكاناً ينام أو يجلس فيه في
اكتظاظ وتدافع وهياج وعراك وصراخ وحفلات جلد بعد منتصف
كل ليلة. الشمس في النهار نار تصب فوق الصفيح المشتعل ولا
تشبه شمس جذع النخلة في الخلاء الخلفي للمقهى، ولا القمر
الأحمر الذي بعثره المطر يشبه قمر المعتقل.

اقربت منه أشباح المعتقل الذاوية المنهكة كما لو أن ذلك يحدث
في غابة ليلية أو في برية معتمدة. مخلوقات محطمة تقترب وتبتعد دون
أن يفهم منها شيئاً عدا جملة تتكرر كل يوم: (هروب من الحرب)،

لـكـنـهـ لـمـ يـذـهـبـ إـلـىـ حـرـبـ وـلـمـ يـفـرـ مـنـهـاـ وـلـاـ يـفـهـمـ شـيـئـاًـ مـنـ كـلـ ماـ

جے ویچ ری ویچ ری۔

كانوا يقضون حاجتهم في الزاوية الأخيرة لعلبة الصفيح أمام الجميع، بعضهم ينام في مستنقعات بقايا البراز والبول بشباب ممزقة وبعضهم يستلقي عاريا تماما ولا فرق بين ميت ونائم حتى تهوى يوما كشجرة قطعت فجأة بمعطفه الأخضر داخل حشد الأشباح وكان آخر ما سمعه ورآه هو رقص دائري حوله وصرخات تصدر من أعماق وحشية لمخلوقات تتراجع وتتقدم وهي تحمل مشاعل نارية داخل كل كهوف عميقية الظلمة.

حين أفاق، وجد نفسه في غرفة مضاءة وقد أجلسوه على كرسي صغير كي تنهال عليه الأسئلة: (لماذا لا تتكلم وتقول الحقيقة؟ من

أنت ومن أية بلدة؟ لماذا تتظاهر بالخرس؟ ما اسم وحدتك العسكرية؟ لماذا هربت من الحرب؟). كان رده الوحيد هو ذلك العواء الذي الصادر من خلجانه العميق : (إذا لم تنطق، ستموت في هذا الجملون المشتعل).

عاد إلى علبة الصفيح والحشر والجذون والضجة وروائح العرق والبراز والأفاس والتعفن لمخلوقات تفسخ بصمت وسرية داخل الأسلام الشائكة حتى ظهرت في يوم ما أسراب القمل و بقع الحرب على الأجساد التالفة وحالات هذيان وحوادث انتشار وجذون وصراخ وحشي وبكاء وأوضاع جنسية في عمق عتمة المعتقل. كان لا يكف عن النظر إلى كل هذا الذي يدور كما لو أنه في كابوس.

القمر يمر من أمام كوة صغيرة في أعلى الجدار في الليل، فتتدافع

الأشباح لرؤية آخر علامات الحياة البعيدة التي قذفوا خارجها في
هذا المسلح البشري الرهيب. في الفجر يهيمن سكون ضاج ولا
يسمع غير أنين صادر من أرض المعتقل. أنين الأشباح الممدة
كخرق مهملة كما لو أن الأرض تئن.

لكن القلب البشري يحضر في قلب عزلته الموحشة، فيندلع غناء
ناعم خفيف من زاوية ما كما لو أنه صادر من أعماق هور أو
حافة برية أو قيعان قلب محاصر، ومع الغناء تتعالى صيحات مخذرة
وأخرى مشجعة: (الغناء منوع بأمر الانضباط العسكري) فيرد شبح
آخر: (لا يوجد هنا قانون). وكما في يوم حشر أخروي تنهرض
مخلوقات المعتقل على ضوء نهار جديد يتسلل عبر شقوق الصفيح
ومن كوة الجدار معلنا بداية موت جديد. تكتشف الأشباح الممزقة
حالات موت جديدة لجنود لم يستيقظوا لا في ذلك اليوم ولا في
أي يوم آخر من الجوع والانهاك والعطش والجلد والحنين والذكرى.

تلك كانت المرة الأولى التي رأى فيها الموت وجهاً لوجه، الموت السري الزاحف لكيانات هربت من الموت لتسقط في موته آخر على مقربة من حائط وبراز وأسراب قمل وكوة في جدار يمر منها كل ليلة قمر بعيد كعذاب أقسى من الجلد الليلي. في هذا الجحيم الشبيه بمعقل نازي يكون مرور قمر أو صيحة طائر أو مرور نسمة علامة الانفصال والعزل والنفي لهذه المخلوقات التي تذوي بسرية موته نباتات البراري.

ضجة السوق أعادت سنونو من كوابيسه المرهقة. تذكر وهو يتأمل شجرة النخيل في الخليء الخلفي للمقهى، كيف أنه خرج من المسلخ البشري بورقة لم يفهم منها غير كلمة: (معتوه). كانت منقذة من الجنون العارم وصراخ الحرب ونقاط تفتيش الطرق ومن مخاطر النوم

في الحقول والحدائق العامة والمراحيل العمومية وتحت مظلات
ال محلات أو في محطات السيارات والقطارات ومداخل العمارت
وتحرشات نزلاء المكاتب التجارية، وغرف المقاولين، والمحامين،
والعزاب الهرميين في غرفهم المنزوية في الطوابق المعتمة، قبل أن يغادر
إلى البرية صوب الجنوب على قدميه قاطعا الجسور والقناطر
والبراري والقرى والغابات والسواعي حتى دخل في ذلك الصباح
مقهى الأرماني.

جفلت زوجة الأرمني على صوت قادم من غرفة النوم: (السلطان الأحمر!، السلطان الأحمر!). حين دخلت الغرفة وجدته جالساً والعرق يتصلب منه كجود منهك. قال لها بين اليقظة والنوم: (هل تلفظت بهراء جديد، يا ماريا؟) ردت عليه بخنان واضح أكثر منه إشفاقاً: (ذكرت السلطان الأحمر). عدل من جلسته حتى صار نصفه الأسفل على الأرض: (آه، كنت قد حلمت بنفسي مصلوباً والى جواري بيغاء تصرخ بذلك المتأف اللعين). وأضاف مستدركاً: (لكن كيف خطر لي السلطان عبد الحميد الثاني؟) قالت وهي تمسح جبهته من عرق متصلب: (حكاية قديمة، يا يعقوب. ماذا سنفعل مع الببغاء؟). تأملها بفرع: (هل حقاً هربت؟). قالت بيقين جارح وهي تتحاشى بصره: (هربت). قالت مضيفة بحسنة وقلق: (

أنت تغيرت كثيراً هذه الأيام).

قام بهدوء وفتح النافذة المطلة على الشارع المغمور بشمس شتوية دافئة وهو أمر لا يحدث كثيراً بالنسبة له في هذه الساعة من النهار، وراحت عيناه تبحثان في الأفق وبين هامات الأشجار وأسلاك النور وسطوح المنازل عن طائر ملقم يحمل في منقاره المشؤوم حكم الموت المؤجل. سأله بشعور فياض من الألم والدفء : (هل ستذهب إلى المقهى اليوم؟) وكما لو انه توقع هذا السؤال، أجاب وهو يعيد غلق النافذة : (لا. ربما غدا). التفت نحوه كما لو أنها نسيت ان تسأله : (ماذا أرادوا منك؟). قلب يديه في الهواء : (يشكون في ان سنونو يتكلم. قلت لهم وأنا بين السقف والأرض : إنه أخرس لكنه يعي). أشرقت في الوجه الحزين المهان ابتسامة عذبة، وأضاف : (عجبت كيف ان سنونو لم يتكلم تحت

هذا البلاء. هؤلاء خبراء في استنطاق الحجر. لو لا الإغماء المتكرر
لما تحملت ذلك الهوان. قلت إن الببغاء هربت؟ طيب، ماذا
سنعمل؟ لا شيء. ننتظر تغريدها فوق بناية أو شجرة أو
منارة...). وقطع كلامه فجأة وقال ضاحكا بامتلاء هذه
المرة: (سنقول أنها تقصد رئيس البلدية).

نظر في عيني ماريا فوجد الوجه الملائكي الصافي كوجه تمثال رخامي
ابيض قد علاه خوف دفين غير معهود في الوجه القمري الغارق
الآن في ضباب معتم. قال يطمئنها: (ربما لا تظهر الببغاء في أي
مكان). وأضاف بلهجة ساحرة كي يبدل ظلمة الخوف: (الجميع
ينتظرون قدم شيء أو أحد. لسنا وحدنا). حين جاء سؤالها
المباغت: (هل انت خائف؟). رد على الفور وهو يستعيد حلم
صلبه الليلي: (خائف ولكن ذلك ليس حلا. اردد قول السيد

المسيح: (لتعبر عنى هذه الكأس). عندها فحسب شعرت ماريا ان
يعقوب الأرمي القادم هو الآخر من مكان مجھول كسنونو، يجهز
نفسه لميّة شنيعة، وكما لو أنه قرأ خواطراًها المناسبة على الوجه
المرمي، قال بخفوت عميق: (صلي كي تظهر في وقت مبكر كي لا
تكون حياتنا معلقة بكل رفة طائر أو نعيب غراب أو ذرق
فور).

في الطريق الى المقهى شم يعقوب في الفجر رائحة خريف زاحف
على الأشجار والروائح والحيطان، وشاهد، من جهة النهر غير المرئي
بسبب كثافة الأشجار وسقف السوق، الضباب النهري وهو يكسو
المنازل المضاءة بنور طري، ودقق في المنارة الزرقاء كما لو انه يبحث
عن شيء آخر ضاع منه وذعر من فكرة أن تكون الببغاء في مكان
ما تنظر اليه عبر أستار الضباب الكثيف. ضحك من فكرة أن

كان سنونو يتمطى حين سمع صليل باب المقهى يرفع بعد أن أنزله
سنونو بلا قفل والأرمني يدخل متهدلاً كخرج بدوي وهو يشمل
المقهى بنظرة مدققة وحين اطمأن على نظام المكان، توجه نحو باب
الغرفة الخلفية وكان سنونو قد قاطعه في الباب وتصافحاً كما لو
كان ذلك بعد غياب طويل، فلم يعد احدهما يعرف متى وأين
وكيف يلتقي بصاحبه؟ سأله الأرمني: هل خرجت من المقهى؟
رد سنونو بالنفي.

شرعًا في غسل المقهى واسعال النار في الوجاق وترتيب المناضد
والكراسي وكنس الواجهة الخارجية في حين انتشر ضوء الصباح عبر
ثقوب سقف السوق ودخلت رائحة خريف وضباب وعشب نهري
مختلطة بنفاثات وعرق بشري وعطر أزهار أشجار النارنج.

كان قنفذ أول من دخل المقهى. قنفذ بشري بسيقان قصيرة يبدو
في مشيته كما لو انه يزحف من كثرة ما حمل على ظهره من بضائع
من السوق الى المنازل. إنه الحمال قنفذ وتبدو على وجهه المغطى
بطبقة كثيفة من الشعر الوبري الحاد ملامح سكر تطلی الوجه
المسحوق بمسحة من الذهول المتحفز كما لو أنه يصغي لصور
وأخبار داخلية متسللة بصفاء تام. قال الأرمني:(شوف قنفذ ماذا
يشرب غير العرق?). قال قنفذ وقد قطع الأمر عليه مشاهد فيلمه

الداخلي تعليقا على قول الأرمني : (يا يعقوب، لو تقلبها خمارة
لكان ذلك أفضل). رد عليه يعقوب: (لن نضيف شيئاً إلى البلدة).
لم يفهم قنفz الذي يبدو انه اكتشف الآن سنونو وهو يمسح زجاج
الناركيلات ، فعلق بخث: (الهواء يلعب بعبك، يا سنونو). لم يرد
عليه أحد.

قال يعقوب وهو يشم في الهواء رائحة أخرى غير رائحة خريف
مبكر: (هل من أخبار جديدة؟). أجاب قنفz عبر شعره الوبري الحاد
الذي يغطي نصف فمه ووجهه: (انشغل الناس هذه الأيام بأخبار
بيغاء ونسوا أخبار الحرب). شعر الأرمني يعقوب أن عاصفة صفراء
تغطي عينيه وأنه صار عاجزاً عن الرؤية والتنفس وأوشك على
السقوط لكنه تمسك بكرسي قريب وجلس عليه وهو يحاول أن
يرى، عبر ضباب الرؤية، وجه قنفz الذي أخذ مع الوقت شكل
بيغاء قبيحة المنظر.

بلا وعي أو تفكير خرج منه هذه السؤال الذي باعثه: (ماذا تقول هذه البيغاء؟) ضحك قنفذ طويلا حتى أوشك على الاختناق بقدح الشاي: (ماذا تقول البيغاء؟ كنت أمنزح). كما لو ان الأرمني أفاق من غيبوبته الطارئة، تنفس بعمق وراحة قائلا: (عندنا ما يكفي). لم يضف وكالعادة لم يفهم قنفذ المغزى لكنه سأل الأرمني فجأة: (ماذا جرى لبيغاء البيت؟). صعق يعقوب، ورد فورا: (بعثتها من زمان لبائع عطور متوجول من البصرة). ذهل هو نفسه من هذا الجواب وتمسك به كرد على كل الاسئلة المنتظرة كما لو ان مصير بيغاء هو كل ما يشغل الناس في هذا الزمن.

صاحب يعقوب على نحو غريب: (سنونو، انت أخني). قابله سنونو بعواء حار وطويل خيل للأرمني انه كان قد سمعه يوما قرب حائط

ومطر منتصف ليل لم يعد في ذاكرة أحد إلا هو كتلك التذكارات
على جذع شجرة النخيل في الخلاء الخلفي للمقهى.

مع الوقت غص المقهى بالزبائن وخيال ليعقوب الأرمني انه يسمع
كلمة واحدة تتردد في هذا الضجيج: (بيغاء) ولا يعلم اذا كان ذلك
ناتحا عن تشوش وقلق أم عن حقيقة. اقترب منشيخ الجامع وترك
المقهى لسنونو. فاجأه الشيخ قائلا بلا مقدمات: (أنت ارمني
طيب ومن أهل الكتاب. ألا تخشى من عذاب الجحيم?). شعر
يعقوب الأرمني لأول مرة بشعان عملاق يلحس جسده وهو يغرق
تدرجيا في أتون نار حامية، فأحس بالغثيان وفكرا ان الأمر قد يعود
إلى سهره الليلي أكثر مما هو ناجم عن مخاوف دينية لم تخطر له
على بال ما دام يردد مع هؤلاء: (اللهم أجعلني مظلوما وليس
ظالما)، لكن صوت الشيخ الهاذر الذي، فكر يعقوب، يمرن صوته

على خطبة الجمعة هذا اليوم، وهو يصف عالم المخطئين في جهنم،
قد أعاده إلى صورته الحقيقية.

حاول أن يكظم غيظه فلم يستطع حين صرخ بحدة في وجه
الشيخ: (لكن لماذا أنا بالذات؟)، فرد عليه الشيخ محتداً كما لو انه
حبس هذا الصوت طويلاً: (سلطت علينا وباءً ومنكراً). حاول
يعقوب أن ينهض لكن الآخر تمسك به بقوة: (اجلس، قلت لك
اجلس. لا تتظاهر بالبلادة. هل تسمع بأخبار درويشك
الأخرس؟) أجاب يعقوب وقد تناهت اليه كلمة (بغاء) تحلق في
دخان المقهى: (لا أعرف شيئاً. هل تعرف أنت؟) ولم يطل جواب
الشيخ وكان ينتهز هذه الفرصة: (لقد عبث بأعراضنا في وضع
النهار). ردالأرمني بغضب واضح: (لم يخترع شيئاً غير موجود. أنا
مسنن نفسي).

نحضر وهو يتوجه نحو الغرفة الخلفية كي يشرب على عجل كأس عرق حار دفعة واحدة وهو يتأمل أوراق الخريف المتطايرة في الفناء الخلفي للمقهى، ويردد مع نفسه دون أن يسمع ضجة المقهى: (إذا كنت سأدخل النار بسبب سنونو، فإنه سيدخل الجنة بسببي).
ضحك في عزلته العابرة وهو ينظر إلى هامة شجرة النخيل المورقة كما لو أنه يبحث عن ببغاء طفت أخبارها على كل شيء. قال يحدث نفسه بصوت مسموع، ساخراً: (إذا لم أمت بسبب ببغاء متمرة في هذه الحياة، فسأدخل النار في الحياة الأخرى بسبب سنونو فاجر). تمنى لو ينقضي هذا النهار ويعود حياً إلى صدر ماريا ويشرب من عسلها الشهي قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر .
كما تقول أغنية مطردة أم كلثوم.

نادى يعقوب على سنونو الذي جاء مسرعاً وابتسم بعذوبة وهو يرى الأرمني يشرب العرق في النهار خلاف عادته: قال يعقوب بخنان وألم : (أصغ جيداً أرجوك. خرجمت قضيتك عن نطاق السيطرة. بدت أخشى عليك كثيراً. يجب أن تختفي عن الأنظار بعض الوقت حتى تهدأ الضجة ثم تعود. هل هناك مكان تلجلج فيه؟)، هز سنونو راسه بالإيجاب وهو يشرح باللغة الإيمائية ليعقوب الذاهل كيف انه حفر في البستان القريب من منزل الأرمني حفرة كبيرة وفرشها بالعشب وسجادة صغيرة وترك فيها بعض علب الطعام وغطاء للنوم واشياء أخرى، حفرة مغطاة بالعشب والأغصان وأوراق الأشجار. شرح أيضاً انه سيذهب هناك الآن قبل حلول المساء كي لا يتعرّض بخنزير بري أو ذئب أو أفعى وانه . ووضع يديه حول فمه . سيطلق عواة طويلاً قبل منتصف الليل كي يسمعه الأرمني ويطمئن عليه. ضحك يعقوب وهو يضمه إلى

صدره بحنان أبي رقيق لم يشعر به إلا مع صغيره الوحيد يوسف، آخر المسرات الشحيدة مع ماريا في ساعات العزلة والتعب والأفراح العابرة.

لكن ضجة في الخارج سحبتهم إلى الجري ومراقبة الحشود الصاخبة وهي تعبر السوق مرددة هتافات وحاملة لافتات فهم منها الأرمني أنها تحتفل بانتصارات حربية على الجبهة الشرقية وللحين بين الحشد وجوهاً كان قد رأها خلال تلك الأيام العصيبة وهو معلق بين السقف والأرض، عارياً، وحين عاد إلى المقهى حاول أن يشرح لسنونو سبب هذه المظاهرة لكنه لم يفلح أبداً، فترك الأمر.

قال: (اسمع، لا تظل تعوي كل الليل كي لا ترعب الصغار وتتصاعد شكاوى جديدة وقد يخرجون لصيدك في الغار. هل فهمت؟). أومأ سنونو برأسه: (اسمع جيداً، حين ترى يوماً طائرة ورقية سوداء، أعرف

انني قلق عليك. حاول العودة الى المقهى ولو كان ثمن ذلك رقبي.
لكن تعال منتصف الليل). وضع يده حول رقبته بشجن، ثم صافح
يعقوب وغادر المقهى بعد أن اختفت ضجة الحشد وترك دراجته
مركونة في زاوية منعزلة في الخلاء الخلفي للمقهى، قرب شجرة
النخيل، والقمر الأحمر، والشمس المشتتة، والقلوب المحفورة في
الجذع تخترقها سهام صغيرة ملونة ذاب صبغها كما ذاب صبغ
القمر من أثر المطر والريح والأيام. حين غاب سنونو تماماً، أجهش
يعقوب الأرمني بالبكاء الذي ذكره بحائط ومطر وصرخات وحشية
لكائن ينتزع بقوة من حضن كائن يصرخ من قلب عزلته البشرية
وتحت سماء بلون ظهر ذئب.

لأول مرة بعد قدوم سنونو، شعر يعقوب وهو يغلق باب المقهى،
انه يغلقه على طاولات وأرائك بلا عاطفة. اليوم أغلق المقهى قبل

منتصف الليل كي يطمئن على سنونو. حين وصل المنزل صعد الى السطح فداهمه رائحة خريف مبللة بالمطر وسمع عبر الهواء الخريفي المشبع بأزهار النارنج وأعشاب النهار وأوراق الأشجار عواءً حادا طويلا ينبع من أعماق البستان المجاور ويصعد في نحيب مرير عابرا الطرق والأدغال والمنازل والنجوم والقناطر والأزمنة.

تلقى يعقوب الغارق في نوم عميق في الفجر صفعة قوية، فنهض مذعورا وهو يرى ماريا تقف جامدة منفوشة الشعر كما لو أنها خرجت توا من القبر. كانت تريد إيقاظه برقة لكنها فقدت حاسة التمييز من الهلع الذي استولى عليها بعد أن سمعت من فوق أسلاك الكهرباء صرخ الببغاء بلهجـة الأرمني نفسه وهي تقول: (أبانا الذي في السموات). قالت ماريا البـاكـية المحبـطة: (ما الذي جعلها تتذكر

هذه الصلاة الآن والناس يعرفونك كمسلم؟). رد الأرمني غاضباً: (لم أجبر على ذلك. أنا أشعت هذه الحكاية بسبب بعض البهائم من الزبائن). قالت ماريا: (وابانا الذي في السموات؟) فأجاب الأرمني بسخط وهو يتابع عبر النافذة حركات البعاء وهو تدير وجهها نحو المنزل كما لو كانت تسخر من الجميع: (أين يمكن أن يكون إذا لم يكن في السماء عند كل الأديان السماوية؟). وحاول أن يطلق كلمة بذئبة لكنه كبح مشاعره في اللحظة الأخيرة لأن ذلك سيؤدي إلى تقويض سلام المنزل الذي حرص عليه كل حياته وهو الشيء الوحيد الباقي قبل وقوع هذه الأحداث المخزنة غير المتوقعة. تابع كالنائم: (المشكلة أنها تلفظ الكلمات بلهجتي كما لو اني أتكلّم عبر جهاز تسجيل).

خرج الى الشارع متوسلا بها أن تنزل لكن الجواب الوحيد الذي ظفر بهي هو ذرق قذف من الخلف بقوة وظل ملقا في الهواء كرسالة سخرية قبل أن تطير ويطير معها قلب يعقوب.

قال:(نسيت أن اقول لك اني قلت في المقهى لقد بعثها الى بائع عطور متجلو في البصرة. اذا عادت، فهذا يعني انها هربت منه).

واذا تذكرت ذلك الهاf اللعين؟)،أحباب):قالت ماريا المرتبكة يعقوب المنكس الرأس:(رغبت في أن أدفن في مقبرة الأرمن جوار أمي). كان ضوء الفجر يلوح عبر النافذة كثييباً كآبة عواء ذئب يأتي من غابة قريبة، من غار في جوف الأرض.

غادر المنزل وهو يتطلع نحو قمم الأشجار والسطح والأعمدة تحت مطر رذاذي خفيف، ورفع بصره نحو البستان الذي يلوح كشريط أخضر تحت المطر والضباب وفكرا في الليلة التي قضتها سنونو في

جحره وكيف توقى المطر والبرد والذئاب والضباع والخنازير البرية والمخلوقات الليلية. نازع رغبة عارمة في زيارته لكنه عاد على أثر رفيف خاطف الى النظر الى الأعلى حيث السماء رمادية موحشة وفكرا في انه للمرة الأولى في حياته يكتشف بعدها جديدا للحياة هو: (المافق)، المستوى الأعلى للنظر لأن يعقوبالأرمني كان يغادر المنزل في الفجر ويعود منتصف الليل وهو ينظر الى الأرض لكنه الآن يكتشف ان عالم فوق الأرض، عالم السطوح والشرفات وقمم الأشجار والأعمدة والسماء المتبدلة والنجوم، هو عالم زاخر بحياة لا تقل صخباً عن الطرق والابواب والبشر.

كان يزحف نحو المقهى كسلحية مكسورة الظهر من الترقب والانهاك والمخاوف. حين مر به حصان عربة أحمر. خطر له ان

الحل الوحيد هو في حصن مماثل يخُبِّ نَحْوَ الْبَرِّيَّةِ أَوْ أَيْ مَكَانٍ آخَرْ
ويتبادل مع سنونو الواقع. لكن البرية، فكر وهو يراقب نقطة
تقرب من بين الغيوم، لم تعد بريّة الأَيَّامِ الْبَعِيْدَةِ. كان عصفور
دوري صغير يحلق طليقاً تحت هذه السماء الماطرة، فهدأت مخاوفه
قليلًا. ضحك يعقوب على هذا الوضع الذي يزداد سوءاً: كيف
يمكن لعصفور أن يشير في نفسه كل هذا الفزع والترقب والمشاعر
المختدلة؟ قبل أن يدخل السوق الذي تراءى له اليوم كنفق معتم
رغم الضوء الفجيري الناعم قرر أن يمضي في نزهة قصيرة قرب سياج
البساتان القرية.

حين اقترب من السياج الطيني المتآكل والذي تعلوه الأشواك
الحادية، خيل إليه أنه يسمع ضجة مكتومة لمطر ينفذ في قلب
جذوع الأشجار ويخترق الطين، ورأى وقد صار الآن فوق السدة

الترابية للنهر، الضباب الكثيف وقارب الصيادين وهي ترتعش في النور الفجري الطري وتحسس الهواء المحمل برائحة الأعشاب والندى والطين والشمار والخريف وعبر الأوراق. لم يشعر يوما انه بعيد عن مقاهه كل هذا بعد، عن ضجة السوق وعوالمه السفلية ومساوماته وحيله وفنون تجارة وصخب الزبائن ورائحة النفايات والغش والعيون المتلصصة. أطل من فوق السياج الواطئ على الدغل المتراكم والأشجار العميقه الخضراء والنور الفتى والسكون العميق الذي يقطعه بين لحظة وأخرى نقر ايقاعي متوازن لطائر أو نقر المطر وهو ينثال فوق الأشجار أو أزيز حشرة محفلة. هو الأرمني نفسه يشعر اليوم أنه قضى حياته في ذلك المدفن وترك فيض الحياة يتدفق في مكان آخر، على مقربة منه، ولم يشعر بذلك الا اليوم حين صار مهددا بفضيحة وشيكه من بغاء هارب وسنونو رفع الغطاء عن جيف معتقة.

عاد الى السوق ليجد الكائن القنفدي صاحب الشعر الابري الحاد
جالسا على أريكة خارج المقهى المغلق. قال قنفدي تحت سطوة ليلة
ضارية من السكر: (تأخرت اليوم؟). لم يرد يعقوب وفتح الباب
بصمت وشعر أنه أثقل من أي يوم آخر. لم يكن باب مقهى هذا
الذي رفعه الآن، بل كان باب الأحزان الثقيلة وهي تراكم كسحب
هذا الفجر الرمادية. زعق قنفدي: (هل سمعت؟ دخلت قواتنا بعيدا في
الـ لـ دود).

لم يعد يعقوب يعرف حدوداً خارج جدران السوق أو المقهى. هذا
القنفدي الهاذى ليس بداية طيبة ليوم عمل شاق ومرهق ومحمل بكل
الاحتمالات. فتح الباب الخلفي للمقهى وأطل على الخلاء المكتظ
بالضياب والأشياء المهملة ووقع بصره على الدراجة الهوائية المتکئة

على جدار قديم وهي تئن تحت المطر، فرسم شارة الصليب كما لو
كان يلقي نظرة على مشهد جنازة مرمية تحت سماء رمادية محملة
بمطر خريفى له عطر ثلاجات الموتى.

كان المطر ينهمر في الليل فوق مأوى أو حفرة أو حجر بشري
تغطيه أغصان وأعشاب من الخارج، ومن الداخل زين بمرايا مكسرة
على الجدار وصور اعلانات لنساء عاريات وصحارى وجبال وثلوج
ومآذن وكنائس وصورة بالأبيض والأسود ليعقوب الأرمني مبتسمًا
في حديقة حيوانات على مقربة من أسد ضخم بلبدة مشعة لا
يفصله عنه غير قضبان الحديد، وبعض الصور لحيوانات كبيرة
وصغيرة من ثعالب وقطط وذئاب وحشرات محلقة ولوحة مستنسخة

عن السوق القديم تعود الى بدايات القرن العشرين يبدو فيها السوق بالالوان المشرقة كمهرجان شعبي صاحب بالناس والعربات والأل وان والبضائع.

في أعماق الليل أرسل رسالته الأولى الى يعقوب حين وقف خارج المأوى ووضع يديه حول فمه وأطلق عواء طويلا حادا متواصلا جعل سكون البستان يهتز. فر طائر من شجرة فوق المأوى، وعوى ثعلب من قلب الدغل، وتحركت زواحف في العشب، لكن سنونو عاد الى قلب عزاته المعتمة والمطر ينهمر مخلفا تلك الرائحة الندية من عشب وعبير ومن سكون غابي حي لا يكسره غير أزيز حشرة او طيران طائر او مروق حيوان باغته المطر، الليل، العش، السكون، دم الشهوة، سقوط الأوراق الخريفية، النعاس.

هنا لا يحتاج سنونو الى الكلام، لكنه يحتاج الى اللغة وهي ممكنة.

عاد سنونو الى زمن ما قبل الكلام ، عاد الى عصر الكهف والماوى والجحر والغابة. عاد الى الاشارة والعلواء والرفيف وحركات الذعر والنشوة وصوت جريان الدم وسقوط الأوراق والمطر وعبير الأزهار ورائحة الضباب وأنين الطين وصوت تكسر أوراق الشجر تحت أظلاف مخلوقات الليل . تلك اللحظة كان يعقوب الأرمي قد أنهى وقوفه الصامت أمام الدراجة الهوائية المتکئة على الجدار وعاد الى جوف المقهى حيث الصخب والدخان وضجة السوق وصلاة ماريا المتضرعة تقع في قلبه كجرس كنيسة كريكور في ساحة الطيران في الباب الشّرقي في نهار أحد بعيد.

بعد مرور أكثر من عشرين سنة ستجري محاولة تفجير الكنيسة سنة 2004 مع موجة تخريب شملت كل دور العبادة أيضا، في لحظة خروج الوحش السري المغطى بالقيم الحريرية وأجمل التحيات والعناق الأنحوي ومواسم حضور الاعراس والماآتم من الغريبة والظلم والغاية والدم كي يستحم بالدم في الشوارع، فكتب الراهب آشور ياقو البازи: (سأحمل أمتعي وأرحل) وهو يرثي بحزن بلاد الرافدين حيث يهاجر أهلها نحو دياربورا عراقية فريدة، مؤكدا هروب الراهب قول بودلير ان العشاق والجنود أكثر شجاعة من الرهبان. اذا هرب الراهب من بيت الرب، فإلى أين يذهب؟

في الأيام التالية صار يعقوب الأرمي يتلقى سيلا من الأسئلة عن سنونو المختفي أو المهاجر حتى ان يعقوب نفسه تصور مرة أن سنونو هاجر مع أسراب السنونو الى الهند في موسم الخريف ولا يدري من أدخل في خياله فكرة الهجرة الى الهند التي تلوح له كفكرة عائمة بين وقت وآخر. مرة وصل به الغضب منتهاه من اللاح الفظ عن المختفي، فأجاب وقد شعر ان قرون قد نبتت في رأسه: (اسأوا عنه الغيوم).

لم يكن يعقوب بعيدا عن الصواب في هذا الوصف، لأن غيوم كانون الأول وقبلها غيوم كثيرة المخلقة في السماء كانت تمر تلك

اللحظة فوق عش سنونو المخفي في قلب البستان، وتمكن في الآونة الأخيرة أن يقيم علاقات مع ثعلب صغير وجده شبه ميت يرتحف من البرد والحمى والجوع على مقربة من أمه المصابة بطلق ناري في الجانب الأيسر من صدرها وهو جانب لا يعرف سنونو عما اذا كان القلب يقع فيه أم لا، لأنه لم يقترب يوما من ثعلب ميت أو حي الا في حكايات مشوشة هائمة غير قادر على تحديد مصدرها. مع الثعلب الصغير عشر يوما على صقر مكسور الجناح موشك على الموت. ولا يدري كيف اهتدى جرذ كبير برأس متلصص كوجه تاجر الحبوب الى حجره المنزوي والمغطى.

صار الآن يعني بمخلوقات كثيرة عدا ذلك: كان يتبع حركة الخنازير البرية ويحاول عقد صداقات مع صغارها المحفلة والصارخة حتى انه قبض على خنوص صغير وحمله وهو يرفس كطفل الى

جحره لكنه عاد بعد جولة نهارية في البستان يوماً كي يجد ان المأوى قد فُتك به وتطاير كل شيء فيه على الجوانب بما في ذلك السقف الصفيحي الواقي من المطر بأنيات أم الخنوص الهائجة المستشارة. لكنه عثر على ثعلبه الصغير مختبئا راعشا من الذعر وهو ينزف دما حارا يختلط مع العشب المبلل، فحمله الى المأوى بعد اصلاحه.

كان في الأيام الأخيرة قد اطلق بينه وبين نفسه اسم مقهى الأرمني على هذا الحجر، كما أطلق على شجرة الرمان التي تظلله اسم المئذنة، أما صف الأشجار المشابكة فوق درب ترابي فلقد أطلق عليه تسمية السوق، في حين وجد ان الثعلب الصغير الجميل يليق باسم ماريا، ولم يجد من يطلق عليه لقب الخنزير سوى ذاك الرجل الذي تطالعه صوره في كل مكان، على الجدران والمنازل والبنيات

والسجون والأسلاك الشائكة والسيارات والمطبات والحدائق
لقد أسس سنونو مملكته التي . والمقابر، وترك تسمية الصقر للأيام
تليق بمعطف ملكي وجحر مؤثر بالعشب ، فوقه المطر، وصاحب
أجمل صقر في العالم يطير في الأعلى وهو يحدق بالماوى، حتى اذا
حل المساء وقف الصقر عند الباب فوق جذع مقطوع عشر عليه
كي يكون بابا ثقيلا يغلق عليه في الليل من الضواري.

في الليل يفكر سنونو في قائمة أحلامه الطويلة المعتقة التي تمنى
تحقيق أهمها في أن يجلس يوما في مطعم ويدفع ثمن الطعام وهو أمر
لم يحصل في حياته مرة واحدة أو أن يذهب الى الفرن ويشتري عدة
أرغفة حارة أو يدفع أجرا طريق لكنه شعر أن كل أحلامه مؤجلة
الآن وانتظر الوقت المناسب لذلك واكتفى برعاية ثعلبه الصغير

الذي صار ينمو كل ساعة ويأخذ شكلًا مختلفاً عن شكله الأول
كما لو أنه دب في جلد ثعلب، كثير الشبه بالصغير يوسف الذي
أخذ ينموا سريعاً حتى خطر له أنه لن يتوقف عن النمو حتى
النهاية.

فَكَرَ عَدَةٌ مِّنْ رَّجُلٍ فِي التَّخْلُصِ مِنْهُ وَفَعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً لَّكِنْ عِنْدَ مِنْتَصِفِ
اللَّيْلِ عَادَ جَالِبًا مَعَهُ عَدَةٌ ثَعَالِبٌ كَيْ يَقِيمُوا عِنْدَ بَابِهِ الْمَغْلُقِ بِجَذْعِ
شَجَرَةِ ثَقِيلٍ حَفْلَةً عَوَاءً دَامَتْ حَتَّى الْفَجْرِ. وَعَلَى امْتِدَادِ اللَّيْلِ،
وَعَرَ ثَقْبٌ فِي الْبَابِ، كَانَ يَرَى أَنْ ثَعَلْبَاهُ الْلَّعِينَ يَضْعُ يَدِيهِ حَوْلَ
وَجْهِهِ وَيَتَأْمِلُهُ مِنْ ثَقْبٍ آخَرَ فِي الْجَدَارِ الْمَكْوُنِ مِنْ أَغْصَانِ
وَأَحْشَابِ وَأَعْشَابٍ. فَكَرَ سَنُونُهُ فِي أَنَّهُ تَعْلَمُ هَذِهِ الْعَادَةَ مِنْهُ حِينَ
كَانَ يَذْهَبُ مَعَهُ لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّيْوَرِ فِي الْأَعْشَاشِ الْعَمِيقَةِ
وَالْجَحَورِ.

كان الصقر أكثر الحيوانات قربا إلى قلبه، اذ يشعر في طيرانه النائي وانقضاضه السريع الخاطف انه يحقق حلمه الليلي الدائم في الطيران. كان صقر سنونو من نوع الحباري بخصلة من الريش الأسود والأبيض على جانبي الرقبة، بلون رملي أصفر واقدام قوية بثلاثة أصابع وكثيرا ما وجد سنونو سحالي صغيرة ممزقة وجرذان وحنافس وحتى بقايا فثran، وكثيرا ما يقدم الصقر عرضا ضاحكا أمام سنونو في الصباح خارج المأوى حيث ينتصب الريش الأبيض فوق الرأس والريش الأسود حول العنق، حتى يسقط سنونو على قفاه من الضحك. لكنه كف عن هذا العرض الاحتفالي بعد عدة أيام من سماع رسائل سنونو الليلية وقد فسر الأمر على انه حنين الى تلك السهول المفتوحة التي مر بها يوما في قطار في صيف قديم وهو يختبئ في احدى عربات البضائع الصدئة والساخنة مع جرذ

شرس ظل يهاجمه طيلة الرحلة وحرمه من النوم ومن رؤية المناظر الشاسعة للأرضي الخضراء، ومثل أي مسافر وصل نهاية الطريق، نزل الجرد في محطة صحراوية وخيل لسنونو أنه بصق عليه وهو يقطع المحطة المنعزلة بلا وجل، بل بمشية متبخترة، ويختفي في غرفة مهملة متداعية يغطي جدارها المقابل دغل كثيف. على عكس ما تصور، فإن سنونو شعر بحزن خانق لأنه قد يكون المسافر الوحيد الذي لا يعرف محطة الآخريرة.

عندما ينام في الليل، يظل الصقر يقظاً تومض عيناه في ضوء شاع رقيق من ضوء قمر ينسلي في بعض الليالي عبر ثقوب الجدران. أكثر اللحظات هياجاً عند الصقر، حين يعودي سنونو مرسلًا رسالته اليومية عبر الليل، كما لو أن هذا هو السلوك الوحيد الذي لا يفهمه هذا الحباري الذي وجد نفسه كسنونو، في غير بيته.

مرت فوقه غيوم بيضاء ورمادية وهو في هذا العش الغابي دون أن ينسى رسالته اليومية إلى يعقوب الأرمني منتصف الليل وهي رسالة العواء الحاد التي حرص على أن لا يتبدل أو يقطع إلا حين داهمه يوما خنزير بري مصادفة وأوشك على الفتوك به كي يظل مرمتيا هنا يتفسخ مثل كل مخلوقات الغابة. كان يعقوب يتلقى هذه الرسالة في أوضاع وظروف وحالات نفسية مختلفة. عدة مرات تلقاها وهو في الطريق إلى المنزل منتصف الليل، ومرات تلقاها وهو يتأمل السطوح والمصايف المضاءة وهامات الأشجار.

مرة وحيدة تلقاها تحت جسد ماريا الشبيه بتمثال مرمرى رومانى رأه في صورة سياحية في مجلة، وكانت تنز عرقا وشهوة وهي توشك على البكاء، وحين اندلع في عروقه حريق الموت واللوعة والعسل،

باغته العواء الناحب الحاد، وبلا تفكير صدر منه هو الآخر عواء
جعل ماريا وهي تتلقى اللهب المحرق تفكر في الفرار من هذا
الانقلاب المباغت في صوت ووجه وقبضة يعقوب الذي أخذ
شكل رجل محتضر.

قال يعقوب وهو يعود الى وعيه الى جوار ماريا: (آسف، ماريا، اذا
استمر الأمر كذلك، ستحول الى قطيع ذئاب تمزق لحم بعضها).
لم ترد ماريا الذاهلة والنائية في مكان بعيد لأنها كانت تنصت الى
حفييف خافت وطيران زلق يوشك على الاقتراب من نافذة المنزل.
لم يكن ذلك سوى خفق أجنحة مر في خيال ماريا كما حدث في
الآونة الأخيرة وهو أمر لم يدهش يعقوب الأرمني بل كان يسليه
لأنه يتقاسم مع ماريا، ماريا وحدها، الخوف والفراش والعواء
والانتظار والدفن، كما تمنى يوما، في مقبرة الأرمن بعد أن يصلى

عليه في الكنيسة التي كانت تبهره كلما مر من ساحة الطيران في
الطريق الى البلدة.

بعد مرور أكثر من عقدين على حلم يعقوب الأرمني سيدخل
جنرال أمريكي في الصباح بوجه ضفدع الى كنيسة القديس كريكور
المنور للأرمن في بغداد، أواخر ربيع سنة 2003، ويمشي فوق الممر
الحجري بين صفين من أشجار الآس، وتسمى "ريحان القبور" أو
"الهوسن" بالسريانية، وهي تفوح عطرا شذيا، يتنافر مع زي الجنرال
الأصفر، كي يطرق باب الكنيسة الداخلي المغلق، في حين كان
الخوري ناريك أشخانيان راعي الكنيسة ينظر عبر نافذة في القبة
الشاهقة، قرب الجرس، سرب عجلات الهاون في الواقفة أمام الباب

الرئيس ويتابع حركة الجنرال، الذي عاد ماراً فوق الممر نفسه وقد لفت نظره ان قبرا واحدا بين القبور يخلو من أي أثر لباقة زهور ويغطي شاهدته الرخامية غبار تماسك من المطر والرطوبة. إنه قبر سيلفا نزاريان أم يعقوب الأرماني. في تلك اللحظة كان المطران افاك اسادوريان يطعم عصفوا دوريا صغيرا وجده مبللا في حديقة المنزل التي تفوح بعبير الأزهار ومغمورة بالضوء النهاري الطري وهو يتمتم بأدعية بصوت خافت ومتهدج.

في نيسان 2006 سيدعوا المطران العراقيين جمِيعاً إلى الصوم من أجل تحذب الحرب الأهلية مطلقاً هذا الهاتف: "صوموا لتنقذوا العراق" في الوقت نفسه كانت الطائرات الأمريكية قد حولت عدة مدن عراقية إلى خرائب ينبع فيها يوم حديدي متوهش قادم من أقصاصي الأرض إلى "أرض القصب" وهي تتقوض وتتحول إلى

انقاض كخرائب أور التاريجية . قائد الدبابة الامريكية ابراهام سأل
عن اسم المدينة التي يقف على تخومها فقيل له: (إنها أور مدينة
ابراهيم) فذهل من هذه المصادفة. هل حقا مصادفة؟

مطر المقبرة أكثر رحمة من مطر الجدران والليل ومخالب القسوة،
فكر يعقوب وهو ينتزع جسده من جسد ماريا الحار كعش سنونه
لم تعد في الربع الماضي، وسيكون في انتظارها بشوق في الربع
القادم، اذا لم تحل به فاجعة بسبب ذاك الشيء الطائر الذي يحمل
مع تلك العبارات القاتلة، أسرار يعقوب الأرمني وصرخاته الجنسية
في السرير، الذي يتمنى لو يموت قبل سماع الببغاء تغرد بها من فوق
منارة البلدة أو من فوق الأعمدة أو الأشجار. فكر بحرقة: كيف

كان بليداً إلى هذا الحد ووضع ببغاءً قرب سريره العائلي؟ وهمس بخفوت: (يا أبتساه ان أمكن فلتعبر عنني هذه الكأس).

سمعها تقول بأسى: (لماذا لا ننتقل إلى الموصل أو حلب). لم تر ماريا مدينة حلب لكنها سمعت عنها الكثير وأضافت: (نحن غرباء هنا يا يعقوب). كان يعقوب قد رد عليها بحنان عارم وقلبه يدق في راحة يده من خفق جناح طائر عبر النافذة المسدلة: (لا، يا ماريا، الناس جميعاً غرباء عند الخوف). لم يكن موقفنا من أنها فهمت ذلك أم لا، لكنه تطلع عبر النافذة إلى الشارع وهامات الأشجار والسطح والأعمدة وحتى الغيوم بحثاً عن أسراره المخلقة والمحمولة في فم ببغاء لم تعجبها كل لكات العالم إلا لكنه يعقوبالأرمني. كما لو أنها تذكرت فجأة، سألت ماريا: (هل من أخبار عن سنونو؟)،

أجاب يعقوب وهو يرتدي معطفه الأسود:(لا أدرى. قد يكون هاجر الى بلدة أخرى). تلك كانت أول مرة يكذب فيها على ماريا لكي لا ينقل هواجسه الواحزة هذه الأيام عن امكانية ان تتذكر الببغاء صرختهما المشتركة في السرير وهم يتداخلان كديوك تتقاطن.

كان الشارع يفيض بضوء فجرى مشع رغم المطر. حين وضع أقدامه على الطريق الى المقهى، والتفت الى الوراء، شاهد ماريا عبر النافذة تقذف له قبلة من يدها تصورها محلقة تحت المطر على شكل ببغاء خضراء متنقلة بين الغيوم تبحث له عن مصير لم يخطر في باله في أشد كوابيسه هولا. فكر ساخرا بمرارة: أي مصير مشؤوم هذا الذي يحدد ببغاء ارعن في السماء وسنونو أخرس في الأرض؟. ضحك بصوت عال وهو يطل الان على صفوف

الأشجار المعمرة التي تحجز النهر عن البلدة، وشم رائحة أغصان
مبللة بالمطر، وشم، بكل حواسه الداخلية والخارجية، رائحة خطر
يزحف بسرية كصلال صحراء منسية.

كان سنونو خلال كل الوقت الماضي، يمسح السماء بيصره عليه
يعثر يوما على طائرة ورقية سوداء محلقة، وحين كان في يوم شتوي
مشرق بعد مطر غزير يتابع نقطة بعيدة في سماء زرقاء مخططة بغيوم
بيضاء حيث كان صقره يغوص عميقا في قلب الغيوم ويخرج منها
محلقا وقد كست مزرق من أشعة الشمس جناحيه بلون ذهبي
خباري مشع، شاهد كما لو في منام طائرة ورقية سوداء تطير فوق

السوق من جهة الخلاء الخلفي للمقهى وهي مزينة بشرائط على
شكل دموع خضراء، وحين استدارت الطائرة الورقية وصارت قبالتها
تماماً، شاهد الرسم المجنح لسنونو في حالة تحليق وهو تخطيط
انهمك الارمني في رسمه بكل أنواع الأصباغ الراسخة والمضادة لكل
أنواع الأحوال الجوية ومصائد الأطفال.

قضى يعقوب وقتاً غير قصير يجهز الطائرة الورقية فوق سطح المنزل
قبل الغبش، وقبل الموعد التاريخي الذي لا يحيد لاستيقاظ ماريا،
وهو تقليد حرصت عليه حتى في أسوأ أيام الحبل الأخير الذي
كانت تقول عنه إنها حلت هذه المرة بحرو، الأمر الذي أفرز
يعقوب ورمقها بنظرة فاحصة بحثاً عن المعنى الملغر لهذه العبارة، لأن
لغة التخاطب في المنزل وفي المقهى وفي البلدة في السنوات الأخيرة

لم تعد اللغة المعهودة حيث الكلمات صارت تحمل عدة وجوه، وأحيانا لا تعني شيئاً، صارت ضربا من التسلية. لكن حلما داهم ماريا قبل الغبش وقبل الوقت المقرر للنهوض من النوم، جعلها تستيقظ لتفاجأ بخلو مكان يعقوب في السرير وهو أمر لم يحدث مرة واحدة في حياتهما المشتركة الهائنة.

حين بحثت عنه في كل غرف المنزل، وتحت وخلف شجرة السدر في الفناء الخلفي، توكلت على جذعها وصعدت السلم الى السطح ليقع بصرها على مشهد مرؤع: يعقوب يرسم طائر سنونو على الواجهة الأمامية لطائرة ورقية سوداء . قالت غير مصدقة جملة خرجت منها على غير توقع من إلهاك الحلم: (تصورتك ميتاً). فزع يعقوب لهذا السبب وقال بما يشبه الخوف جملة خرجت منه هو

لم تصدق وظلت ترمقه بنظرات وجلة حائرة مشككة حتى غادر المنزل الى السوق وهو يحمل علنا طائرته السوداء التي خيل ليعقوب ان وجه السنونو المرسوم قريب الشبه بوجه بيغاء أحضر تكفي صرخة واحدة منها بتلك الجملة القاتلة كي يعود الى كنيسة كريكور المنور ذات البناء الهندسي المخروطي المبني على طراز الكنائس الارمنية وربما يحظى بقداس يقيمه على جنازته الخوري غريغوري نارييك أشخانيان راعي الكنيسة أو أي خوري آخر مشتت الذهن

من تقلبات الطقس والاحوال والرتابة المعطرة ببخار التاريخ. وفكرة لا يمكن أن يكون قد ولد تحت جدار ماطر متآكل.

1

في حزيران 2004، وبعد أكثر من عشرين سنة من هذه الاحداث تحدث الأب غريغوري نارييك عن تاريخ الأرمن في العراق بجريدة محلية قائلًا: (ينتمي الأرمن إلى العرق الآري ويعود وجودهم إلى أرمينيا وفي الأجزاء الوسطى من آسيا الصغرى إلى الألف الثالث قبل الميلاد لكن تعرض أرمينيا إلى غزوات متكررة من الامبراطورية العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين أدى إلى مجازر بحقهم وحتى تأسيس تركيا الكمالية. وصل عدد الأرمن في العراق بعد تلك المجازر العثمانية سنة 1915 بين 25.30 الفا. أول هجرة للأرمن

الى العراق كانت من ايران الى البصرة وبغداد ثم الموصل في القرن السابع عشر. ويسكنون حاليا في بغداد وكركوك والموصل وزاخو وفي غيرها. عندما وصل المهجرون الأرمن الى العراق، يضيف الخوري غريغوري، بعد تلك المذابح، استقبلوا بكل حفاوة من العراقيين عموما، وآووهم في بيوتهم واقتسموا معهم رغيف الخبز وكانت لهم عبر الزمن الحقوق نفسها في العمل والتعليم والصحة والسكن والعبادة ولهم عدة كنائس: في بغداد كنيسة كريكور المنور في الباب الشرقي، وكنيسة القديس كرابيت في منطقة كمب سارة، وكنيسة مريم العذراء وقد أُسست سنة 1638، وكنيسة الشهداء وبنيت سنة 1989، كما توجد كنائس أرمنية في البصرة وكركوك والموصى لـ وزاخو).

ضحك يعقوب بينه وبين نفسه من فكرة أن بيغاءً متمرة قد تتحقق حلمه الطويل في العودة الأخيرة إلى عش الأم وإن كان يشك في ذلك في منطقة مبعثرة في عقله لأن احتمال أن يلقي في فم تماسح أو كلب شرس أو قفص ذئاب جائعة إذا قررت تلك الببغاء الوقحة ان تنطق يوما بتلك الجملة، هو ممكن. وماذا سيحصل؟ ليس أكثر من عود ثقاب مرمي في طريق. سوف لن يخسر العالم ولا كنيسة كريكور شاهدة حجرية وحفرة صغيرة ليعقوب الأرمني الذي لم يتذكر واجباته الدينية إلا بسبب بيغاء هارب وسنونو أخرين في جحر في غابة. ماذا سيقول في العالم الآخر للملك الأرمني أرخا بن خلديتا أو نبوخذ نصر الرابع الذي قاد ثورة في بابل عام 521 قبل الميلاد كما هو موجود على صخرة بيهستون في إيران ضد الملك الأخميني داريوس؟ هل سيقول له انه قُتل بسبب بيغاء وقحة منافية وتأوهات جنسية؟ الصور تتداعى هذه الأيام في مخيلة

يعقوب الأرمني بلا انتظام ولا يدرى لماذا خطر بياله الآن منظر استوديو أرشاك الأرمني في الباب الشرقي صاحب الاستوديو الشهير باسم (أرشاك) أو المصور جان صاحب (ستوديو بابل) ولوحة الرسام بهجة عبوش عن عماد المسيح في سقف كنيسة الأرمن في بغداد والفنانة سيتا هاكوبيان والمخرج كارلو هارتيون والأب نرسيس صائغيان خبير في تاريخ المقام والشخصية البغدادية الشريه سارة تايتوسان أو سارة خاتون التي قابلها علي الوردي سنة 1945 وكانت عجوزا هرمة لكنها، تحمل بقايا ذلك الجمال الغارب، فقلت مع نفسي، يقول الوردي: " ساعد الله قلبك يا ناظم باشا" والي العراق الذي عزل بسبب هيامه بها من قبل السلطان العثماني.

شم يعقوب رائحة آخر باقة زهور وضعها على قبر أمه قبل أن

يتوقف عن زيارة الكنيسة في صباح مشمس وعذب. حين خارج من بوابة الكنيسة، آخر مرة، شعر ب قطرات تبلل خصيته وكانت تلك عالمة شؤم تحقق منها بعد وقوع تحولات وانقلابات سياسية خاطفة رغم ان ماريا فسرت هذه القطرات على انها بداية سلس بولي، وابعد من أن تكون عالمة دينية أو نبوءة سياسية كما يحاول يعقوب أحياناً أن يضع سلوكه أو كوايسه أو عشرات لسانه أو سقوطه من فوق سلم المنزل كما حصل مرة حين ربط هذا السقوط بيوم قيامة قريب لكن بدلـه شهدت البلدة في ملعبها الرياضي حفلة اعدام لجنود فارين من الحرب على الحدود الشرقية أمام جمهور حشد على عجل وبالقوة وأمام صرخ عوائل المعدومين.

أفاق على صوت نسائي ناعم ورقيق كنسيم هذا الفجر المهدئ
يأتيه من احدى النوافذ، وحين أفاق من ذهوله، طالعه وجه العلوية
هاشمية الملقبة بـ"الشوافة" أو عرافة البلدة، منورا فتيا لم تخذله سنوات
الأربعين ولا كل هذه السنوات العجاف كما لو أن هذه المرأة تعيش
خارج زمن البلدة وقد حنطت خلاياها في جليد سحري أو أنها
عثرت على عشبة الخلود التي فقدتها كل كامش بعد بحث منهك في
الصحارى والجبال وغابات الأرز وصارت من نصيب الأفعى. قال
لها بنوع من التبجيل الكريه الذي يستفزه أكثر من أي شيء آخر: (ـ)
صباح البركة والأنوار يا أحلى نساء الأرض). ردت عليه ساحرة
بأناقة مهذبة: (لو كنتَ امرأة لقلت إنك تحدث نفسك. هل عندك

بعض الوقت لشرب الشاي؟). أجاب يعقوب بسرور لم يتوقعه: (كل الوقت).

من أعماقه السرية الغامضة التي تهدف له في مثل هذه اللحظات بصور وتفسيرات ومشاعر مختلدة، شعر يعقوب الأرماني أن هذه العرافة الأسطورية التي تنبأت بوقوع حوادث كثيرة تحقق الكثير منها والباقي، تقول، في الطريق، لديها ما تقوله له لأنها التاريخ السري لهذه البلدة وخازن أسرارها وفضائحها والمؤمن على قلوب التجار والعشاق والمحانين من إصابات الحرب والسجون والباحثين عن الأمل. حين استدارت لتعد الشاي تأملها يعقوب من الخلف بنظرة شيطانية جامحة، فوجد أن الغواية تكمن في هذه الأرداف المتوجبة كغزال يتعلم القفز توا في حقول مشمسة، لكن خفق جناح مbagت عبر نافذة غرفة الضيوف المطلة على حدائقها المضاءة بنور

فجري شفاف أيقظ هواجسه المتواصلة عن أقدام الكارثة المقبلة.
عادت بصينية الشاي وهو تتلوى في مشيتها الطبيعية بلا غنج
وجلست قبالته محدقة في عينيه بتلك النظرة المتمهلة الفاحصة المعروفة
لأنها اعتقدت على هذا
النزنق الصبياني للرجال في بعض محطات الحياة.

قالت كما لو أنها تحثه على شرب الشاي:(سأذهب معك اختصارا
للوقت مباشرة إلى الموضوع. كنت أريد أن أقول لك إن احتفاء
سنونو أثار حيرة الناس أكثر من حضوره. حدسي يقول إنه ما يزال
موجودا تحت سمعك وبصرك). قال يعقوب وهو يتأمل اشجار
الحدائق:(هل هذا هو كل ما يشغل الناس في هذه الأيام؟). لم ترد
أول الأمر لكنها واصلت التحديق الهدائى والرصين والمهدب فى
عيني يعقوبالأرمني الذى يعرف من قول ماريا المتكرر إن عينيه

هما الجزء الوحيد في جسده الذي لا يقول شيئاً أبداً، وانها تقرأ
خواطره ومشاغله وهمومه من رائحة جسده في الفراش. حين يكون
منزعجاً من أمر ما حدث في المقهى، تشم رائحة تشبه رائحة
حليب الفرس التي تتذكر مذاقها يوم كانت أمها تجبرها على شربه
لأنها تؤمن انه يقوى بنية البنت في وقت مبكر، وحين يكون
مشتاقاً لها تنبئ منه رائحة روث متفسخ تحت الشمس، أما حين
يكون قلقاً، فإن رائحة صمع اليوكلوبتوس يخرج مع المني. هل
ستكون هذه الشوافة هي ديبورا التي ساهمت في قتل القائد الكنعاني
سيسرا، تحت أي سبب ولو بذرية واهية؟ لكن ما علاقته هو
صاحب المقهى البائس بسيسرا؟ إن كل هذه الحوادث التاريخية
القديمة عشر عليها في تلك المحلات الدينية التي كان يحصل عليها
خلال زياراته النادرة الى كنيسة كريكور في ساحة الطيران والتي
انقطع عنها منذ عدة سنوات بعد ان انقلبت الامور تماماً.

قالت وقد شعر بقلبه يخفق:(لكن هذا ما يشغلني أنا يا
يعقوب). كلسعة بعوض مرقت فكرة لعينة في رأسه عن سلوك
سنونو مع النساء وقد لا تكون هذه المرأة بعيدة عن عالمه الوردي.
لكنها تابعت كما لو قرأت أفكاره:(لا تذهب بعيدا. الأمر لا
يتجاوز الاحراج الذي يواجهني من بعض الزبائن. انت تعرف أن
سنونو ليس بعيدا من هنا . حاولت معرفة برجه فلم أتمكن). كان
يعقوب قد سمع الكثير عن تنبؤاتها، فقال بلهجة طيبة:(كيف يمكن
معرفة برجه إذا كنا لا نعرف اسمه ومكان وتاريخ ولادته ودينه؟إذا
كان الأمر كذلك، فهو قد يعود قريبا كما يخبرني قلبي). عندها
شعرت بارتياح عميق واتكأت على مسند الأريكة المغطاة بقماش
حريري مطرز بصورة ثور تحفز قرونه للنطح. علقت بخبت:(فيما

يتعلق بدينه الأمر واضح. هل نسيت عالمة المسلم في الجزء السري من الجسد؟ أكثر من واحدة أكدت لي الأمر بإعجاب وشوق). قال كي يبدل موضوع الحديث: هل تظلين وحيدة إلى الأبد وتتركين هذا الجمال يذبل؟). أجبت منتشرة وهو تدفع صدرها إلى الأمام، فشعر يعقوب الأرمي، أمّام توّثب مفاجيئه عبر الثوب الأزرق الناعم، بأنه يتدهور، قائلة: (الجمال كالأزهار يحتاج إلى أصابع ورعاية. ليس هنا من هو غير جورب مستهلك. لو كنت في مكانٍ، لما اقتربت من أحد). وعندما فحسب عرف يعقوب الأرمي أن العلوية مغمرة بقدرة سنونو على كشف المستور، لا عن طريق النبوءات وقراءة الكف، بل عن طريق الجسد. وكما لو أرادت أن تقطع عليه خواطره وتوّكدها، قالت وقد صار ثور الأمريكية أكثر هياجا كما بدا له: (كيف يمكن لأنّه يترك كل هذا اللغط دون أن ينطق كلمة واحدة؟). قال يعقوب وقد شعر أن الوقت

تأخر في الذهاب الى المقهى: (أعتقد ان في الأمر كثير من المبالغة.
أستاذنك في الذهاب). حين غادر المنزل، شم في كل مسامات
جسمه رائحة روث متفسخ مع أن الفجر يعقب بشذى الأشجار
والأرض المبللة والضباب.

خطرت له فجأة وصايا ماريا المتكررة في شراء ديك رومي لعشاء
ليلة عيد الميلاد، وإذا لم تجد، تقول ماريا متسللة وضاحكة،
في يمكنك شراء وزة ريانة تمشي بدلال وغنج. قد تكون مشية هاشمية
أو ديبورا المستقبل هي التي ذكرته بحكاية الديك الرومي أو الوزة
ذات الأرداد الجنسية المثيرة التي ستشوى على نار هادئة في ليلة
الميلاد المقتربة.

في انتظار قدوم منتصف الليل، ظل سنونو يتأمل الطائرة الورقية المحلقة تارة، ويلعب مع صقره الحباري أو يطارد الجرذان المذعورة أو يتسلق الأشجار لقطف الثمار تارة أخرى. في واحدة من هذه الجولات عثر على حجر لختزير بري لكنه فر قافزا فوق الأشجار بعد أن لاح عبر الحجر الخطم الحاد الميت حين شم الحيوان رائحة كائن بشري يقترب من خنانি�صه الصغيرة، وعندها شاهد الطائرة السوداء ترفرف فوق السوق كما لو كانت توميء إليه.

سنونو الوحيد في العالم الذي يفهم معنى هذه الطائرة، كما ان يعقوب الأرمني هو الوحيد الذي يفهم العواء الليلي الريتيب منتصف

الليل القادم من أعماق البستان المحاذي لدجلة أقدم أنهار الأرض.

بهذه الطريقة تمكنا من التفاهم على مدى شهور تحت سمع وبصر البلدة دون أن يفهم أحد لغتهما المشتركة: عواء سنونو يحمل رسالة تغير قليلا كل يوم: (كيف حالك يا يعقوب؟ أنا بخير. أو: لا تقلق مازلت حيا. سنلتقي يوما. أنا حي.. الخ) في حين كان صمت يعقوب الأرمني يعني: (استلم رسائلك كل يوم وانا مسرور. أو: لا تقلق ناحيتي أيضا. حين تقرأ رسالة الطائرة، تعال. الامور تمشي جيدا.. الخ). أما رسالة اليوم المحلقة السوداء فهي تعني: (سنونو، تعال. انا مشتاق اليك). هكذا تمكنا من تأسيس لغة داخل اللغة وخارجها، فوق سطح البلدة وأشجارها وأعمدتها وبنياتها ومؤسساتها وضجيتها النهارية وصمتها الليلي الجارح وهي تنام على مشاهد موت وولادة وجنون واحتفاء وحفلات زواج وهروب ومارشات عسكرية واحتفالات حربية ومواعيد غرام منتظرة بسبب

بريد السنونو الذي انقطعت أخباره لكنه يمر كل ليلة فوق رؤوسهم
كعواء طويلاً يرتطم بنجوم الليل والضباب والمطر.

من مخبئه في دغل كثيف مطل على النهار، شاهد قوارب الصيادين
تعود في المساء تترافق فوانيسها على سطح الماء كنجوم منعكسة
فوق في مرايا بلورية معتمة، وسمع صيحاتهم وهي تختلط بصيحات
النوارس الجففة من وجوده في هذا الدغل في حين كانت ظلال
الشواطئ تزداد عتمة. مع حلول الظلام تندلع الجوقة النحاسية
لکائنات وحشرات وأذيز مخلوقات تنام في النهار وتستيقظ في
المساء على ضوء القمر الذي كان ييزغ ببطء من خلف الشريط
الشرقي لأشجار النخيل الملتف حول النهار والموغل عميقاً نحو
الجنوب، وتلوح في الأفق اسراب محلقة لطيور مهاجرة ثم تختفي
كنجوم منطفئة.

شم رائحة الأعشاب النهرية ورائحة تراب مبلل وأغصان ندية وخيل
اليه ان للقمر المتوج فوق حافات الأشجار رائحة كعبير زهور برية
تتفتح في قلب العتمة والرمل والسكون. كان الصقر يتکيء على
كتفه كما لو كان يغفو على غصن وهو ينشب مخالبه برفق في
معطف سنونو الأخضر الشبيه الآن بشجرة ليلية معتمة واقفة عند
أقدم أنهار التاريخ، في انتظار منتصف الليل، حيث سيسلل كحيوان
ليلي وهو يغادر جحده في الظلمة العميقه خوفا من ثعالب
الليل، وفي الوقت نفسه ارتفع شعاع المصايبع العمومية من قلب
البلدة صاعدا نحو السماء وهامات أشجار اليوكالبتوس المعمرة
العملاقة وهي تطل، كأشجار بابلية في حكاية، على نهر الأساطير
المستمرة حتى الآن.

سنونو وهو يقف الآن بقامته كاملة في عتمة الليل والدغل
والأشجار على ضفة النهر أمام قمر أحمر يخرج تماما من بين شريط
أشجار النخيل في الأفق الشرقي، يرى، عبر النهر، فوق جزيرة
منعزلة، بنايات حديثة وأسلاك شائكة وأسوارا وأبراج مراقبة وأضواءً
كافحة ونوافذ مضاءة بنور فاتر رمادي منفر ومنتجعات ومهابط
طائرات عمودية ومساكن سياحية كتلك التي رأها في محلات
الأرمني. ما لم يقرأه سنونو عند مدخل تلك الجزيرة النهرية
الساحرة، مدخلها الوحيد على اليابسة، هو علامات تحذير بعدم
المرور أو طريق خاص أو لا تقترب .. الخ. تلك كانت جزيرة مختارة
كمجتمع خاص لأفراد الحزب الحاكم، لا يعزلها عن البلدة غير
النهر، وسنونو يقف الآن فاصلا بين منطقتين لا يفصله عن
جسمه غير صقر الحباري الذي أفاق على رائحة هذا الليل الضاج
بكل ما هو شهي: هذا الليل، هذا الصقر، تلك الجزيرة الرمادية

الموحشة، هذا النهر، تلك البلدة، هذا الرجل القادم من عتمة البرية
إلى عتمة المدن والغابات والأنهار، مخلوقات الضفاف المستيقظة
على ضوء القمر، كل ذلك غرق الآن في السر والسكون والضوء
المشتت القادم عبر النهر ومن أعماق البلدة ومن قمر يبتعد كلما
اقترب من حافات الأشجار والأسيجة وخفافيش الليل المتحاطفة
في هـذا السـكون المـتوثـبـ.

سنونو نفسه هو الكائن الوحيد هنا الذي ينتظر لحظة الذهاب إلى
موعد مختلس، تحت جنح الظلام، أكثر حذراً من خفافيش الليل
وهو تعلن طيرانها الزلق فوق سطح النهر. وحده صاحب المعطف
الملكي الأخضر العشبي يشعر اليوم أنه لم يعد بحاجة إلى الكلام
كما شعر من قبل، ففي هذه العتمة الباهرة والروائح النهرية المخدّرة

وفي صحبة الصقر ومطاردة الحشرات ورفقة الدغل والأشجار والنجوم والشواطئ، لا معنى للكلام أبداً. بل انه استطاع التواصل مع أرنب عشر عليه مريضاً في الدغل وحمله الى المأوى بضعة ايام، رغم نفور الصقر من هذه الضيافة الغريبة، تعلم خلالها لغته بكل بساطة قبل أن يطلقه مرة أخرى في البستان: اذا وقف الأرنب على قدميه الخلفيتين، فهذا يعني انه في حالة حراسة، واذا تمدد متهدلاً، فهذا يعني انه مريض، واذا انبطح على الأرض تماماً، فهو في حالة خوف واحتباء، واذا وضع اذنيه في حالة منتصبة، فمعنى ذلك انه في حالة تنفس. ولسبب ما لم يتعجب سانونو كيف انه لم يعثر على لغة مشتركة مع أهل البلدة رغم ان يعقوب الارمني قال له يوماً جملة غير مفهومة: (هؤلاء، يا سانونو، نسوا اللغة. لم يعودوا يتكلمون ولكنهم يرثون).

فَكَرْ وَهُوَ يَعُودُ إِلَى الْمَأْوَى وَقَدْ كَسَاهُ الضَّبَابُ وَبَدَا الصَّقَرُ مُتَحَفِّزاً
لَحْكَةَ خَفِيفَةَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، فِي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَذْهَبَ لِلِقَاءِ يَعْقُوبَ
وَقَدْ حَلَقَ لَحِيَتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَحْلُوُ لِتَعْلِيهِ أَنْ يَلْحَسَهَا حِينَ يَصَادِفُهُ فِي
الدُّغْلِ. عَلَى ضَوْءِ شَمْعَةٍ صَغِيرَةٍ وَمِرَآةً جَيِّبٍ عَلَى الْجَانِبِ الْخَلْفِيِّ
مِنْهَا صُورَةُ فَرَسٍ تَنْغُزُ فِي جَسَدِهَا عَدَةَ سَهَامٍ تَقْطُرُ دَمًا وَالِّي
جَوَارِهَا جَسَدٌ مُمْزَقٌ لِفَارِسٍ بِعِمَامَةٍ سُودَاءَ يَنْطَرِحُ عَلَى رَمْلِ
صَحْرَاوِيِّ فِي هَجَيرٍ ظَهِيرَةً مَهْلِكَةً قَرْبَ نَهْرٍ وَقَدْ قُطِعَ جَسَدُهُ إِلَى
أَشْلَاءٍ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى وَجْهِ الْمَصْلُوبِ عَلَى خَشْبَةٍ كَمَا رَأَاهُ فِي
وَاحِدَةٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْأَرْمَنيِّ، حَلَقَ سَنُونُ لَحِيَتِهِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَ
إِنْ رَأَى الطَّائِرَةَ الْوَرْقِيَّةَ السُّودَاءَ، كَانَ قَدْ اسْتَحْمَمَ فِي بَرْكَةِ مَاءِ نَظِيفَةٍ
بَيْنَ الْأَشْجَارِ حِيثُ بَدَا أَنَّ الصَّقَرَ الْوَاقِفَ عَلَى قَدْمَ وَاحِدَةٍ فَوْقَ
الشَّجَرَةِ الْمَطْلَةِ عَلَيْهِ سَاخِرًا أَوْ مُسْتَهْجِنًا رَؤْيَا سَنُونُ عَارِيَا وَهِيَ الْمَرَّةُ
الْوَحِيدَةُ الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا بَلَا مَعْطَفَهُ الْأَخْضَرُ وَبَلَا أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

ذهل سنونو وهي يرى جسده وقد تحول الى عظام ناتئة جوفاء تمر في داخلها الريح وتترك صغيرا يشبه صفير قطار مندفع في بريه مفتوحة على النهار والسهول والقناطر والمستنقعات الغارقة في نور سماوي شفاف. لكن ما أدهشه أكثر حد الفزع هو اكتشاف ان صورة المعطف وخطوطه كانت مطبوعة على جسده ولم يكن اكتشاف الجروح الخفية الملائمة أو المتقيحة، القديمة والجديدة، مفاجأة له، فهو اعتاد هذه الجروح في دروب كثيرة منسية، ولم يكن على اية حال يشعر بأي الم بسببها كما لو أنها تشق أو تنغرز في جسد آخر لا صلة له به أكثر من صلته بهذا المعطف الأخضر العشبي وهو الشيء الوحيد الذي يملكه ويلف به هذا الجسد الذي يتعـرى الآن أمامـ صـ قـرـ الحـبـاريـ.

كان قد فكر في الأيام الأخيرة في أن يرسل إلى يعقوب الأرمني
وماريا بعض الفواكه والثمار والأزهار المحففة وحتى الأسماك التي
يصطادها في الليل من النهر بصنارة عشر عليها مخبأة في العشب
على الشاطئ وفي مكان نزول الصيادين إلى القوارب، لكنه لم يجد
وسيلة مطمئنة لذلك، فقرر اليوم أخذها معه وهو يتاهب لغادرة
المأوى والتسلل إلى الشوارع بين الأشجار والجدران وقد أخذ المطر
يهطل بغزارة وغاب القمر بين الغيوم مما سيسهل عليه عبور الشوارع
حتى الوصول إلى السوق في وقت قصير.

أطلق آخر عواء قبل أن يتسلق السياج الطيني المتآكل وينحدر
تحت جنح الليل كمتسلل خرج لارتكاب جريمة لقاء صديق. وكان
قبل ذلك قد أطلق الصقر خارج المأوى تحسباً لكل الاحتمالات
كي ولا يموت الحباري من الجوع والعطش لو تعرض سنونو لخطر

ما، لكنه أغلق الباب وتأكد من وضع جذع الشجرة المقطوع في مكانه المناسب وحمل في سلة سعف نسجها بنفسه بعض الفواكه والثمار والأزهار المحففة وسمكة حية اصطادها امس وتركها تلبط في بركة ماء جوار المأوى، وحين أخرجها من البركة حدقـت فيه بعينين ضاريتين مكحـلتين بكـحل أسـود فـاحـم بل رـأـى قـرـطا ذـهـبيـا على شـكـل فـراـشـة في الأـذـن الـيـسـرى وـلم يـنـقـصـها، فـكـرـ سنـونـوـ، ضـاحـكاـ، غـير حـزـام حـرـيري كـي تـرـقـصـ على الطـبـلـ ذلك النوع من الرقصـ الغـرـيـيـ الذي رـآـهـ في حـفـلاتـ قـدـيمـة خـالـلـ المـدنـ التي عـبـرـهاـ.

عبر صفي أشجار الـيوـكـالـبـتوـسـ الضـخـمةـ علىـ جـانـبـيـ سـدـةـ النـهـرـ، ثـمـ انـحدـرـ بـمواـزاـةـ مـبـنـىـ الـبـلـدـيـةـ، واـخـتـبـأـ بـعـضـ الـوقـتـ بـيـنـ أـشـجـارـ الـحـديـقـةـ الوـسـطـيـةـ لـدىـ عـبـورـ سـيـارـةـ، وـانـدـفـعـ رـاكـضاـ عـبـرـ درـبـ يـقودـ إـلـىـ

السوق الذي تعوي فيه الكلاب واقترب من باب المقهى نصف المفتوح ودخل بهدوء ومشى نحو الباب الخلفي المطل على الغرفة الداخلية ليطالعه وجه يعقوب الأرمني ثملاً وشاحباً وهو ينسج على صورة لطفل بالأبيض والأسود تعود إلى أربعينات القرن العشرين يتکيء على جذع شجرة نخيل ويترقب نهاية الشارع في انتظار قدوم أحد ما من نهايته. ما لم تقله الصورة هو أن الصبي يعقوب كان ينتظر قدوم الأم التي كانت غائبة لسبب نساه اليوم لأن كل الأسباب تتشابه. عائق سنونو وبكى على كتفه كما لو أنه يعاني صبي الصورة: صورته.

شربا معاً نبيذ العنبر الذي يصنعه يعقوب الأرمني فوق سطح المنزل. ضحكا. أكلوا. شرح كل واحد منها للأخر فترة الغياب. سلمه سلة الفواكه والثمار والزهور المحففة وجفل يعقوب وهو يتأمل

وجه السمكة الشبيه، كما بدا له، بامرأة سوقية.

فهم يعقوب من علامة ما أن سنونو يملك صقرا، فصرخ بلا حذر
ما أجمل سنونو الذاهل:(تقول صقر؟ متأكد؟ اذن، حللت
المشكلة). لم يفهم سنونو أية مشكلة فوضح يعقوب بفرح
طفولي:(البيغاء هربت وهي تحمل أسرارا عائلية تعلمتها في غرفة
النوم) ضحك سنونو بخجل. قال الأرمي:(هل صقرك ذكي؟ أعني
هل سيصطاد هذه الملعونة قبل أن تقضي على؟). فهم يعقوب ان
سنونو قد طمأنه حول مصير البيغاء، فشربا معا كأس ليلة القبض
عليه المنتظر.

حين ظهرت عبر الخلاء الخلفي غلسة الفجر، وتعالت زفقة
العصافير، قال الأرمي:(اسمع جيدا. حاول ان تأتي مرة واحدة في
النهار وتتر في شوارع البلدة. عليك وحدك أن تقرر في أي يوم.

سوف نرى بعد ذلك. لكن دعني أرى صقرك يحوم في سماء البلدة طيلة النهار كي يطارد الببغاء المشؤومة قبل أن تحل الكارثة). قال له سنونو انه سيستمر في العواء الليلي حتى ذلك اليوم الذي سينقطع فيه وهذا يسبق نهار ظهوره العلني. قال يعقوب وهو يحتضنه بحنان وده: (دعني ارى الصقر في السماء كل نهار من أجل تلك الفاجرة. خذ معي الدراجة وغطها جيدا في الدغل).

لكن صقر الحباري لم يحلق لا في ذلك النهار ولا في أي نهار آخر بعد أن كبس عليه ثعلب شرس وهو يقضى حاجته في حفرة عميقه وهي عادة تعملها من سنونو ومنزقه تماما، ولم يبق منه ما يؤكده انه صقر سوى الريش المتناثر ورأس تحدق فيه عين واحدة سليمة من

عراك دموي، بسخط وتوعد، نحو سنونو الذاهل. انغرزت تلك
النظرة المهددة في قلب سنونو عدة ايام وخاصة في الليل، على
صوت المطر الهاطل، أو صرير الريح، وهي تمرق بين الأشجار،
والأدغال، وحافة المأوى، وانطفأت رقصة الحباري كنيزك في برية
مظلمة، كحلم بـ زغ وتلاشى.

ظل يعقوب يمسح السماء بنظراته كل نهار دون جدوى وخلال
ذلك اكتشف، هو المدفون في عفونة السوق والمقهى، ان حياة
أخرى أكثر جمالاً ودهشة تتحرك فوقه من طيور وغيوم وبدت له
نجمة الصباح، رغم المخاوف الدفينة، لأجمل شيء رآه في حياته ولا
ينافسها في هذا السطوع والبهاء والبياض الذهبي النافر الا جسد
ماريا حين تستلقى على السرير وهو يركض فوق برية البياض كجوداد
مستشار وعلى مقربة منه طائر ارعن يسجل قاموسه الجنسي البذيء

الذى يتجدد بلاوعي كل مرة.

وقت الظهيرة حين تخف ضجة السوق بسبب لهب الظهيرة صيفاً وفترة قيلولة سريعة شتاءً، صار يخلو لوحده في الغرفة الخلفية وهو يتأمل لوحات وصور كتاب موسوعة "الفن الاسلامي القديم" أرسلته له الفنانة سيتا هاكوبيان قبل عدة شهور في البريد وعليه كلمة اهداء بخط لا يمكن أن يكون الا بأصابع فراشة او ملائكة يقول: (أخي يعقوب: قد يكون هذا الكتاب مفيداً لك لأنني أتذكر جيداً أنك حين كنت صغيراً كنت ترسم فوق كل شيء، وإذا لم تجد قلماً، فإنك تخطط الأرض بيولك النتن. اذا عدت من المقهى اليوم، قبل ماريا وكالة عنى برقة وتحية حارة الى سنونو . سيتا هاكوبيان. بغداد . 1985). وكتبت على المظروف: مقهى يعقوب، أبو يوسف الأرمني، السوق. بلدة الصيراوي.

كان يقلب صفحات الموسوعة وهو يرمي نافذة الغرفة المطلة على الخلاء الخلفي للمقهى. هذه لوحة رقص الدراويس. الفنان محمدى. مخطوطة بالحبر الأحمر لمقامات الحريري تمثل السيد المسيح في القدس. لوحة من كتاب الأغاني . أمير في جلسة طرب. صورة جدارية تمثل الحسين وقد مزقته السهام ثم أخرى وقد عاد منها كوالدم ينرف من جسده من القرن السابع عشر. لوحة من مقامات الحريري بعنوان الفرسان في طريقهم الى دار افراح الشحاذين. لوحة من كليلة ودمنة: الأرنب البري وملك الفيلة عند بئر القمر. لوحة الحارث وغلامه الميت من المقامات. لوحة درويش في لحظة تأمل. لوحة من مخطوطة للواسطي عن أبي زيد الشروجي أمام حاكم رحمة عاشق الغلمان يقود غلاما. صورة جدارية من سامراء: غلام مملوك يحمل غزالا. لوحة بستان سعدي. حفلة أنس وطرب بحضور السلطان حسين ميرزا. ومن مقامات الحريري لوحة عن أبي زيد

ايضا وهو يشكو غلامه للأمير. لوحات كثيرة عن كليلة ودمنة ويظهر فيها ظبي وجذ وسلحفاة وغراب والمزربان وامرأته في البazar تعود الى سنتي 1200 - 1220 م. ومن كتاب الحيوان للجاحظ لوحة عن عبد مخصي يطلق طيرا من القفص. حدث يعقوب نفسه: ليس أكثر من عبد مخصي من يفهم مشاعر طير في قفص او جواد يحتاج الى ترويض. لوحة من مقامات الحريري: رهط الابل. ظهر سرب الابل عند جدول ماء. زمن اللوحة: 1237 م. أغلق الكتاب حين عادت ضجة السوق في الساعة الخامسة عصرا وصار ينظر الى نفسه كما لو أنه خرج الان من صورة أو لوحة أو حكاية قديمة في كتاب مغبر في خزانة عتيقة من خشب الأبنوس.

خطر له أن عدة سنوات مرت، ثقيلة ومربكة ومحيرة، على قدوم سنونو مليئة بالأحداث والمفاجآت، لكنها رغم كل شيء خفت من أحزان خفية مختبئة في أعماق الروح. إن عمر يوسف اليوم هو نفسه عمر قدوم سنونو كما لو أنه كان بشارة وأملًا وضياء سطع في لياليه الرمادية والجحافة وأهوال حرب مشئومة صبغت الوجوه والجدران والنفوس بلون كالح ميت. يوم ولد يوسف كانت الحرب في عامها الأول، واليوم يقترب من عامه الخامس وهو يتفتح على مشاهد الموت والجنائز والقتل والاختفاء والصخب. شعر يعقوب بانقبض وهو يفكر في الأيام القادمة، في مستقبل الطفل، في المختفي والقدر والسر والمعتم. هل سيعيد يوسف سيرته المؤلمة؟ أم ان الاغتصاب والموت والألم سوف لن يكون قرب حائط ومطر وليل، بل على صورة أخرى؟

عاد يعقوب منتصف الليل منكسرًا. عاد هذه المرة بديك رومي
بطباع مستهجن، اذ كلما دخل الى الخلاء الخلفي للمقهى وقد
تركه طليقا طوال اليوم، جاء الديك الرومي مسرعا وهو يحك
مؤخرته بساق يعقوب المروّع، وحين يصل الى لحظة ما، كما لو انه
صرع، يطلق صوتا أقرب ما يكون الى صوت يعقوب في السرير
وهو يوغل في دغل ماريا المختدمة من اللوعة واللذة والألم.

مر في طريق العودة من تحت شرفة هاشمية فسمع ضحكة خافتة من
خلف النافذة ورأى بابها يفتح لتخرج هذه العرافاة كملاك ليلي
 بشوب أزرق حريري ناعم وشفاف يجسد مفاتن جسد في صلابة
النور ورقته رغم الليل الشتوي البارد وكان قد شم رائحة نبيذ العنبر
ينضج به كل جسدها وحتى الثوب وتحلى ذلك في مرح هادئ

يعكس عزلة وحشية مغطاة بقناع من النبوءات والأحلام والأوهام.

عزلة افعى في صحراء الظماء. قالت: (لقد رأيت طائرتك السوداء تحلق اليوم طوال النهار. رد يعقوب: (هل وحدك من رأى ذلك?).

أوشكت على إطلاق ضحكة مستهترة في عمق الليل لكنها كبحت ذلك قائلة: (لا يوجد هنا من يرفع رأسه الى السماء هذه الأيام. تذكر، يا يعقوب، هذا الكلام. في يوم ما ستنفجر علبة القاذورات هذه عن قتلة ولصوص ووحوش ونصابين من كل الأنواع. العلبة مغطاة الآن بسد محكم اسمه الخوف). تجاهل المعاني الخفية في كلامها وأثنى عليها لأنها تشرب النبيذ تحت المطر وفي أعماق الليل وبهذا الشوب الشبيه بشوب برجيت باردو، كما قرأ في محله، حين دخلت قصر الأليزية أول مرة بثياب الجنرال كما علق ديغول على ذاك المشهد البابوي. هاشمية وهي ترفع دبوسا سقط الى الأرض، انطلق طائران مشتعلان باللهب من صدرها البعض

المعجون بلون كحلي ورملي وناري وسماوي له رائحة عشب تحت المطر: (قليل من الخمر يفرح القلب قبل أن تأتي الذئاب، يا سيد يعقوب) . لقد احتاج الامر الى زمن طويل لكي يكتب الشاعر سعدي يوسف في منتبذه في ضواحي لندن هذه القصيدة صيف 2007: (لم يجئنا قطيع الذئاب. الرجال يقولون إن الذئاب التي أتختمتها خراف المراعي ستدهب نحو الكهوف القرية. قد تسائلين: وأين تأتي اليانا؟ أقول لك الحق: إني أراها هنا الآن. إني أراها هنا تخمس الباب. هل تسمعين صرير المخالب فوق الحديد؟ وقضضة العصل.. تلك النيوب التي سوف تنهش طفلا لنا، أولا، قبل أن تغتصبي لحمنا المرّ؟ لا تسائلي، واهدأي. هَيْئِي الخبر والماء والتين. أغطية الصوف. صف الرصاص. الضماد. الذئاب التي تخمس الباب لن تدخل البيت. حتى لو

استُعرت بـ (الجنون).

هذه اللحظة جاء العواء الحاد من خلف الأشجار، قرب النهر،
فمضى يعقوب وهو يحمل الديك الرومي المصاب بكل العاهات
الجنسية على ظهره مشدوداً بحبيل في حين كان الديك ينقر في أسته
طوال الطريق كما لو كان ينقب فيه عن آخر الأسرار العائلية المحلقة
هذه الأيام في الفضاء، وعجب كيف يمكن لمثل هذا الديك
الشيوعي المنحرف أن يكون عشاء الليلة المقدسة؟

تلك الليلة عرف سnonو مشاعر حداد غريبة بسبب الموت المرتجل
لصقر الحباري واطلق عواًً بعد منتصف الليل كرسالة يومية ليعقوب

الذي شعر ان سنونو يعوي هذه المرة من قلب محروم ونازف.

في تلك اللحظة كان المطر يهطل بقوة أكبر فوق المأوى وتذكر بغيرة
وضوح اغنية عن طير الحباري للمطرب حميد منصور وجع الريش
الذى تناثر في الحفرة المشؤومة وحفر بأصابعه للمرة الأولى قبرا ودفن
بقايا الصقر أو بقايا حلم الطيران والعثور على الببغاء الشرس وانقاد
يعقوب الوفي من ورطة الأسرار الطائرة في الفضاء. اليوم يشعر
سنونو لأول مرة في حياته انه اختبر مشاعر حداد طبيعية ومشاعر
حفر قبر لصديق ومشاعر دفن. انه يسلك سلوك الانسان السوى
في اختبار مشاعر فقدان ولو في قلب عزلته الوحشية تحت مطر

يهطل بغزارة فوق غابة وعلى مقربة من نهر كبير وعريق في القدم
كالموت نفسه، كالظلم، كالضباب، وجنوح القلب.

يعقوب وقد باعه العواء في الطريق الى المنزل، تحت المطر، وهو
يحمل موسوعته المصورة برسومها المحافظة والفاحشة وديكه النزق،
خطر له ان هذا لم يكن صادرا من فم سنونو بل من جوارحه، من
أدغال روحه الموجلة في العمق والطين والعشب والصور وكل
سلالات التشرد، حتى داهمه صوت جمد أطرافه وجعل العرق
يتصبب من كل ذرة في جسده بما في ذلك حزامه الجلدي الأحمر
وهو يقترب من نافذة غرفة نوم ماريا في الشارع وسريرهما المشترك
آخر مساحة للأحزان السرية: (بقوة! بقوة!).

كان صوت ماريا المتشنج نفسه. دار الشارع والمصابيح والأشجار والأبواب والعالم والمقهى والسوق وشعر انه يهوي الى هاوية من الضباب بلا قاع وشم رائحة براز تخرج من أنفه حين سمع خفق الأجنحة فوق عمود الكهرباء. حينئذ رأى نفسه يطير خلفها عبر الأسلام والأشجار وأن أجنحة نبتت له فجأة لكن بلا جدوى.

غابت في المطر والضباب والعتمة الليلية بعد أن نشفت له ريقه ودمه وحولته الى كائن ملحي من الدهشة والذهول والرعب. كيف لم يخطر بباله أن البيغاء اللعينة لم تكون تسمع صوته وحده بل صوت ماريا ايضا؟ وها هي الآن تقلد صوت ملاكه البريء بتلك العبارة الفاحشة الكفيلة لو سمعتها ماريا بأن تحمل الجنين يخرج من أنفها، صارخا. فتح الباب بهدوء ودخل غرفة النوم. كانت ماريا تنام محتضنة يوسف النائم كمسيح صغير، يفوح من جسدها عبير الخزامي لنفورها الشديد من العطور الأجنبية، وعلى وجهها تطوف

احلام الملائكة كطفل يحتضن دميته المفضلة وينام، باسما. كانت هاشمية هي التي جلبت لها أول مرة زهور الخزامي بالأزهار البنفسجية، والحواشي البيضاء الشفافة الفاتحة، مرددة قول "أمرؤ القيس": كأن المدام وصوب الغمام / وريح الخزامي ونشر القطر.

سحب يعقوب حزامه بغضب وهو يتوجه بالكلام الى السقف: (قلت لك لتعبر عنني هذه الكأس). لأول مرة في حياته نظر الى الجانب المعاكس لجدار غرفة النوم بحثا عن الساعة الموجودة في الجدار الآخر منذ أكثر من ربع قرن والتي اشتراها من رصيف ميناء البصرة من بحار هولندي له طبائع هذا الديك الرومي. فكر في اهداء سيتا هاكوبيان وعن عبارة مختزلة عن طفولته لكنها لم تمر، كي لا تجرح احساسيه، الى هلاكه الليلي تحت جدران المطر وأصابع شرسه تنتزعه بكل قسوة من دفء أعمى لكنه يفيض نورا

وحراة وحنانا. سمع صوت ماريا الناعس الحار كرغيف ساخن: (عدت، يا يعقوب؟). لم يقل شيئاً. حمل يوسف النائم كملاك الى غرفة أخرى، وعاد واندس في السرير وقد أوقدت كلمات الببغاء في دمه نيرانا أخمدتها العمل، وشم في جسده رائحة روث معتق يتفسخ تحت الشمس. قال جملة واحدة لأنغنية شعبية للمطرب ياس خضر قبل أن يتهدم جوار البياض المرمي ويتحول الى أنقاض بصوت مفعم بالحنين والرجاء والشكرا: (عيونك مثل زرازير البراري، بكل نشاط جناحها بعالى السحر). كان المطر يثال فوق السطح في حين كان ضوء المصباح العمومي يخترق ستارة النافذة، عاكساً أشباح الليل.

صرخت ماريا هلعة راكضة في ضوء الفجر الندي المутم الممزوج
برائحة المطر الى غرفة النوم وكان يعقوب يرفل بنوم طيب وقد قفز
من السرير كما لو داهمه كابوس واحتضنها برفق في حين كانت هي
مشوشة البال غير قادرة على تفسير أو شرح ما جرى. كل ما خطر
بيال يعقوب انها سمعت تلك العبارة الفاحشة من فوق عمود النور
لكن ماريا روت له، وهو بين الحلم واليقظة، حكاية الديك الرومي
الشبحي الذي باغتها وهي في المطبخ تعد له الفطور وتمكن من
مسكها بجناحين حديدين وطرحها أرضا وأوشك على أخذها
بالقوة لو لم تلطمته على وجهه بآخر ما تبقى لها من قوة ونفس

ي.

وعو

قال يعقوب زافرا:(يبدو أن كل شيء قد فسد هنا. لا يُسمح لبريء
أن يعيش بيننا لأننا جوقة. البريء نضعه على حمار أبتر ونطوف به
الشوارع وعلى رأسه طربوش أحمر دون أن يعلم). انطلق كثور هائج
إلى المطبخ وحمل أطول سكين عشر عليها هناك وركض خلف
الديك الرومي الزاعق المستنجد حتى قبض عليه من عنقه كرجل
 حقيقي حاول انتهاك زوجته عنونة قبل أن يحز عنقه أراد أن
 يسمعه آخر جملة تأكل قلبه:(سيكون هذا مصير
 رئيسك).

1

ذاك النهار، نهار المشنقة، كان رأس الديك الرومي المخنط لا يزال
مسمرا على جذع شجرة السدر في حديقة منزل الأرمي كتعويذة
سحرية غامضة ولغز من أغاز ذاك البيت العتيق الذي صمد في
وجه الريح والزمن والأمطار رغم انه تأكل في عدة مواضع لم يتح
ليعقوب الأرمي الوقت الكافي لاصلاحها وربما لانعدام الرغبة في
ذلك حين اصبح الخراب وحشا متوجولا بأنيات قاتلة في كل مكان
وهو يتتجول في ارض بابل وآشور ونينوى بأقدام ثقيلة تسحق كل
شيء وتحلّم إلى رماد.

كان أحد رواة هذه الحكاية يعبر جسر التون كوبري في الطريق إلى كركوك. إن جسر التون كوبري أو الجسر الذهبي شهد عبور ثلاثة جيوش غازية: عبره الجيش العثماني نحو بغداد بقيادة السلطان مراد الرابع، والجيش البريطاني، واليوم الجيش الأمريكي. كان يخترق أحياء البلدة وقرابها الوديعة المنتشرة على الجانبين، عبر نافذة السيارة: بويك كوبري، كوجل كوبري، قرى قايا باشي، قاره بك، محلة اورط اياق، كوبري كوس كي الخ.

كل تلك الجيوش، فـّكـرـتـهـتـ إـلـىـ النـسـيـانـ ،ـ لـكـنـ جـسـرـ الـبـلـدـةـ
المـتوـهـجـ تـحـ الشـمـسـ أوـ القـمـرـ ،ـ يـخـتـرـقـ الـأـزـمـنـةـ كـصـوـتـ اـبـرـاهـيمـ خـانـ

وهو يقود الثورة في التون كوبري ضد البريطانيين في عشرينات القرن الماضي بعد رحيل الأتراك وقتل القائد البريطاني: (قبل هذه الجيوش، وهذا الجسر، حدث نفسه، تعرضت البلدة لغزو وحشي روماني وجرح في تلك المعركة القائد الروماني جوليا. التون خانم المرأة ورئيسة العشيرة والتي رفض صاحب الجسر القديم عبورها الجسر اذا لم تتزوجه، أمرت عشيرتها ببناء جسر جديد. شاعر تركماني خلد هذه المأثرة برباعية شعرية تقول: ليجرفك السيل، أفضل من عبور جسر من لا شرف له).

حكاية يعقوب الأرمني رواها درويش مشرد قرب بقايا قلعة كركوك. قال الدرويش إنه هارب من الجنوب وإنه جامع حكايات عن المحانين والعشاق والفارين والمذعورين والمحبطين والمحطمين والمهجورين من الفرح وعن مغني بدوي كان يعزف على ربابه قديمة عند أبواب

البيوت من أجل بقايا ثياب أو حفنة طحين أو رغيف خبز. كان يضع قلبه على ربابته ويعزف. كان يموت، علنا، دون أن يعرف الناس أحزان المغني. في المساء يختفي من الشوارع.

في الحقيقة ، قال الدرويش ، يجرجر المغني البدوي جسده كذئب
جريح الى عمق حفرة. هناك ييكي بكل عذاب العالم. في الصباح
يرتدي قناع المغني. هو القناع الحقيقي الوحيد في هذه البلاد. ثم
بعد الأحداث الأخيرة، احتفى. لم تعد هناك شوارع آمنة ولا من
يسمع. صار صوت الربابة انحرافا عن العويل العام والموت وهتاف
الانتقام.

هل ترى ذاك الرجل المنطوي على جسده والمتكم على جدار
القلعة المتآكل؟ تابع الدرويش: إنه قدم من منفى بعيد من أجل
هدف واحد: أن يرى قبر المرأة التي هام بها حباً. عندما لم يجد
القبر، فقد صوابه. صُدم. أغلق جهاز الأمان الاحساس بشراسة
الواقع لأن قوة الضغط فوق الاحتمال. إنه راوي حكايات وهو من
كتب حكاية يعقوب الأرمني. جاء من منفى بعيد لكي يمارس
ذاكرته. توقفت ذاكرته الآن عند تلك الأيام. لو لم يقم الدماغ
بهذه الحيلة الدفاعية، لحن الرجل تماماً. ظل يتنقل من مدينة إلى
آخرى، بين نقاط الموت والتفتيش والانفجارات ومرأكز الشرطة،
حتى وصل إلى القلعة.

حياته صارت وليمة للجميع أينما ذهب. هرب من هنا لكي يحمي حكاية هناك ويبحث عن دفء ومسرة وحرية، وعاد من المنفى حاملاً حكاية خيبة أخرى لكي يرويها لقبر لم يجده، فوجد ان الوطن كله مقبرة. هذا الراوي عاد كرحلة حضرموت، مهشم القارب: "بلا امرأة محنأة اليدين تمثل في انتظاره، ولا حفيد يحمل عنه أحقاب المسافر" كما كان سعدي يوسف يعني يوماً في حانة

دافئة منعزلة في ضواحي لندن، والثلج ينهمر عبر الواجهة الزجاجية، وهو يتحدث مع عجائز فاتنات عن الطقس والشعر والموسيقى والحنين والغزو والخيبة، عن رحلة حضرموت. لم يجد عند عودته من يروي له، فاختار أن يروي لنفسه، للليل، للنجوم المطفأة، في موت بطيء: الموت، حباً.

عندما سأله عن اسمه، قال الدرويش، قبل أن أعرفه ، قال كما لو أنه يتحدث مع نفسه:(أظن ان اسمي بيار دوشين). قلت له : (دوشين كتب رواية " الموت حبا". أنت لست أجنبيا؟)، أجاب:(وماذا يهم الآن؟ كلنا أجانب). ثم راح يردد قصيدة لسعدي يوسف: " لكستناء الحصان، اشتقت في سفري/لا نخلة الله شافتنِي ولا الأثُلُّ/ لا ذوائب لبلاَبٍ/ ولا سمك يلاعِب الماء.../ قالوا: ثم فاختَّه تأوي اليك مساءً!/ قلت: منتبدِي

مأوى العذاري ذواتِ الريشِ / لا امرأة قد آنستني / ولا ليلى
ترطب لي متن الفراشِ / فلا نعمى ولا قُبَّلُ / كأن قطن فراشي
 حين أمسه / سجادة بالبياض المغضِّ تختفلُ .

مرة أخرى، تابع الدرويش، سأله عن اسمه فأجاب: (إذا كنت مصرًا
فاسمي أوكا الكسندرسين). طبعاً لم يكن ذلك صحيحًا وعلمت
فيما بعد أن هذا الاسم هو مغني نرويجي من شعب التاتارنا تم محوا
هويتهم وتعقيمهم وخصيهم في النرويج من قبل أحفاد القرادنة
الفيكنغ لكونهم مختلفين فحسب في القرن الماضي ولأن لهم هويتهم
الخاصة، ثم صار مغنيا مشهوراً وروى سيرته في كتاب "طائر
غريب".

قبل أن يوح باسمه قال لي، ضجراً:(نحن لسنا فردا، بل جوقة. سبني جوقة). عرفت ان ذلك المقطع من انحصار لوقا. سأله مرة عما اذا كانت لديه حكاية جديدة، فأجاب وهو يحدق بذعر إلى سرب عجلات الهاامفي الأمريكية وهو تمر في شوارع كركوك:(عدت من المنفى، كما خرجت، بحكاية أخرى وخيبة أخرى اسمها حفرة بيراب).

واصل الدرويش: إن راوي حكايات يهرب، ويغامر، ويعبر عدة حدود، ويسجن في عدة دول، ويلاحق، ويتعذب، من أجل إنقاذ حكاية؟ نحتاج إلى مثل هذا الراوي لأنه الوحيد الذي يروي لنا الحكاية لا كما جرت، بل كما أحسها واحترق بها. الحكاية هي ألا تسرد ما رأيت فحسب بل أن تروي كيف تخيلت. إنه الآن يستعيد

على جدار متآكل حكاية حبه. يعيشها في حين يغرق الآخرون في الدم والخراب. من أي منفى جاء؟ لا قيمة لذلك ما دام الوطن قد تحول إلى منفى. هجر الحياة وعاش في حكاية. إنه أسعد الناس في هذا الجحيم.

واصل الدرويش الكلام: ذاك العجوز المنكسر الظهر الذي يصبح مرددا قول هيرومان هيسيه: "ما كان بالأمس خمراً، أصبح اليوم خلاً. ولن يرجع الخل خمراً أبداً. أبداً". إنه حضر موسى من محلة جقور الرجل الذي طار في منطاد لأول مرة في تاريخ كركوك في رواية "آخر الملائكة" لفاضل العزاوي. يحلم في العودة الى زمن الحكاية. هذا مستحيل اليوم حيث الغيوم يمزقها الرصاص. قد يعود المنفي عودة أفضل من هذه العودة إذا صار شخصاً في حكاية.

هل ترى ذاك البيت المتداعي؟ قال الدرويش، إنه بيت تسكن فيه العرافة هاشمية، صديقة يعقوب الأرمي، العجوز التي لا تزال محتفظة ببقايا جمال انشوي مُطَمِّئن. هي الأخرى وصلت إلى قلعة كركوك، هاربة، من الموت قتلاً، كما تقول، خوفاً من تحقق نبوءات قديمة لها، لتكشف أن المدن هذه الأيام، كالفرح والطرق والأشجار، مصابة بالوباء نفسه. تقول في آخر نبوءة إن كركوك ستتحول إلى صحراء يوماً. ماذا تعني؟ النبوة لا تفسر حرفيًا لكن من يدري إن الخيال مدهش أحياناً. لماذا هرب هؤلاء إلى هذه المدينة؟ كركوك هي الفتيل والطمع والحداد والأمل واللهم الذي يجذب الفراشات لكي تحرق. مكان واسع يضيع فيه الدرويش ورجل المخابرات والثائر والتائه والعاشق واللص والمنحرف والقديس وال مجرم والشاعر بسلام في الظاهر، لكن هذا ليس إلا القناع. إنها كجود جامح

فوق جبل، اذا فلت اللجام، سوف يطل على الهاوية. لكن ماذا سيخسر درويش؟ قال:(أنا أكبر الخاسرين من هذا الخراب. حين تتحطم مخيلة الناس، تختفي الحكايات. هناك حكايات اليوم أكثر من السابق لكن هذه جرائم). وأضاف الدرويش:(كنت قبل هذه الأحداث، أنام قرب جدار كنيسة كريكور في الباب الشرقي في بغداد وقد اطلقت على نفسي اسم عباس كريكور ، حبا بالقديس كريكور الذي أمر الملك الأرمني درتاد الثالث في القرن الثالث بعد الميلاد بوضعه في حفرة لأنه رفض تقديم القرابين الى الآلهة آناهيد ورمي في حفرة تسمى خور فيراب في مدينة ارداشاد عاصمة أرمينيا القديمة في عزلة لا يتحملها غير قديس أو وحش لكن الأميرة خوسرو فيدحوت أخرجته من الزنزانة بعد مرور ثلاث عشرة سنة لمعالجة والدها الملك من مرض نفسي أصابه سنة 301 م. إنها الحكاية نفسها. إنها حفرة فيراب التي دفعنا فيها جميعا. إن تاريخ

الحفرة أو الجب أو البئر عريق: من بئر يوسف الى بئر إرميا، ومن بئر دانيال الى جب يونس في جوف الحوت الى بئر يوحنا الصليب في ديجور طليطلة، الى بئر الظلمات الذي حشرنا فيه وهو أخطر الآبار. يسألني الناس دائمًاً أين ننام؟ أنام وأعيش في حكاية) واحتفل_____. بعـد ذلـك تمامـاً.

كان يعقوب ذاك الفجر، موقناً ان الديك الرومي لن تاح له الفرصة ثانية في هذه الحياة كي يبلغ عنه إلا في العالم الآخر الذي يأمل أن يتشفع له فيه افاك أسدوريان مطران كنيسة كريكور المنور لذبحه هذا الديك بهذه القسوة اذا صادف وجوده هناك أو أي مطران عاطل عن العمل في سنوات البلاء هذه. خطرت له صور كتاب الحيوان للجاحظ التي تصفحها البارحة وبدت له حقيقة تماما. قال لاهثا: (سأحاول العثور على وزة شريفة). كانت عينا الديك الرومي تطلقان شررا حاقدا نحو يعقوب قبل أن تغشيهما عتمة رمادية وتنطفئان كزورقين يغطسان ببطء في عتمة مساء ضبابي.

كان سنونو في الايام التالية يحشد كل ما يمكن أن يتذكره من خبرة
في التقلبات الجوية والأيام المشرقة ولحظات شروق الشمس الدافئة
وحركة الغيوم البيضاء المرتحلة لا يعرف الى اين كي يخرج بدراجته
الهوائية علينا في البلدة بالمعطف الملكي الاخضر نفسه لكنه لم
يتوصل الى نتيجة مهمة عدا التعرف على نجمة جديدة ضاحكة في
المساء عرف أن اسمها نجمة الراعي. كان حلمه الجديد ان يعثر على
صقر آخر بدل قتيل الحاجة في تلك الحفرة المنحوسة، لكن ثعلبه
القديم عاد اليه في نهار يوم وهو كتلة من العظام واللحم والشعر
الممزوج في خلطة منفرة مخيفة كما لو كتب على سنونو أن يكون
دفانا ومقبرة لهذه السلالات الهائمة في البستان والسماء والضفاف.

كان الشغل ما أأن وصل حتى أطلق عواً يشبه النحيب ووضع
رأسه في على فخذ سنونو وهو يرنو اليه بين لحظة وأخرى بعينين
مزقتين من العجز والألم والعزلة. خطر لسنونو انه يتأمل وجهه في
مرآة تضمحل تدريجياً كفانوس زورق يبتعد في خلجان الفجر. على
نحو غير متوقع، وقف الشغل الجريح على قدميه، بعد منتصف
الليل، وغادر المأوى، تحت المطر، وأطلق عواً متواصلاً طويلاً وهو
يرفع بصره نحو قمر يظهر ويختفي بين غيوم رمادية ثم تداعى وحمد
بلا حراك ودفن الى جوار صقر الحباري بالصمت المدوي نفسه
الذي لا يقطعه غير سقوط قطرات المطر فوق الأشجار.

تلك الليلة هي الوحيدة التي لم يرسل فيها سنونو رسالته اليومية الى
يعقوب الأرمني الذي من جانبه تلقى ذاك العواء برجفة في الأطراف
جعلت ماريا الخارجة توا من الحمام بشعر محلول وعبير الخزامى
تفتح ستارة النافذة كي تطل على الشارع وأعمدة النور وهامات
الأشجار. لم تقل شيئاً لكن يعقوب همس لها بصوت عميق
وتالف:(الشيء الوحيد الذي يستحق عليه والدك الرحمة، هو
النطفة التي أنجبتكم). كانت ماريا قد تعودت على هذا النوع من
الجمل الصبيانية حين يكون يعقوب في أشد حالاته تشوشا
وقلقا. اختلطت رائحة تراب بلله المطر بصوت يعقوب المختدم في
حين كان شعر ماريا الذي ما يزال رطبا تلك الرطوبة البريئة التي
تفوح من جسد رضيع، ينشر عبيرا هو مزيج من الزهر البري وجسد
فتى قادر على أن يقيم يعقوب الأرمني ولو من رماد.

لم يكن عالم سنونو في البستان ورديا تماما بعد مرور خمس سنوات على وصوله البلدة، اذ مع الوقت واكتشاف الحياة الخفية للجرذان والذئاب والحشرات والضفاف وأدق نقرات المطر وعبير الأزهار والأوراق وطبقات العتمة والنور، تعرف على العالم الخفي للبستان: المقمرة السرية في ركن منعزل مسور بالدغل حيث يجلس رجال في ذهول تام عن كل ما يحيط بهم من الصباح وحتى عتمة المساء، فجور طالب الدراسات الدينية في غزواته المنحرفة مع صبيان نزلاء أكواخ النهر الفقيرة، وتأوهات مهلكة صادرة من قلب الدغل كما لو أنها تنبع من أعماق الأرض، وعثر في جولاته الليلية السرية على الشاطئ على حفلات غرام ناحبة يتم فيها وضع الشموع في وعاء ودفعها بعيدا في النهر كقسم مقدس على وفاء لن يستمر أطول من لهب تلك الشموع، وطائرات مروحية تحلق على طول الضفاف،

واطئة، كي تحرس جزيرة الحاشية في الضفة الأخرى، وعشر يوما وهو يخرج من عتمة البستان الى عتمة الشاطئ الناعمة على بقايا عظام بشرية، بل وعشر في أحدى الليالي على جثة طافية في النهر مكتفة اليدين . من قال، بعد مرور زمن طويل، إن ظاهرة الجثث الطافية في النهر هي ظاهرة غريبة؟

تعلم السباحة في النهر وصيد السمك على نحو أفضل من السابق وقليل البيض وإعداد الشاي في الليل كي لا يرتفع الدخان في النهار كما لو انه يحمي المكان أو نفسه من زحف تلك العفونة المكتسحة بسرية وصمت مريض كشعبان ينبثق من الرمل.

في احدى الليالي أوشكت شمس سنونو على الغروب الى الأبد بفعل قطيع مرقط لضياء عاوية حاصر المأوى من كل الجهات

وأخذ يعول بوحشية وهو يمزق بأنيا به الغليظة الأمامية جدران
الجحر المصنوعة من الأغصان والأخشاب والأعشاب الجافة القوية.
كان سنونو قد سمع ان الضباع تشرب دم الانسان وانها تهاجمه
مجتمعة من كل الجهات خاصة في الليل لأن الضباع لا تخرج من
جحورها في النهار. حدق بها عبر فتحات المأوى، فدهش للرقاب
الغليظة والخطوم الوحشية والأقدام ذات الأربعه أصابع والظهور
المحدبة والأطراف الخلفية الأقصر قليلاً من الأطراف الأمامية وأفرعاته
النظره البشريه ذات البريق الوحشي وهي تحدق اليه عبر ثقوب في
الجدران وشم الرائحة الكريهة لهذه المخلوقات الضاريه. فكر في ان
الوقت قد حان كي يتصرف أفضل من الانتظار وتهاوي الجدران،
فأشعل نار شمعة وقربها من ثقوب الجدران لأن الضباع تخاف من
النار وتهرب، وهذا ما حصل تلك الليلة التي لم يتمكن فيها من
إرسال رسالته اليومية ولم يخرج من المأوى كي لا يكون مضيعة في

وليمة جماعية لضباع الليل. كان أغرب ما في تلك الواقعة المخيفة هو أن أحد الضباع وقد تأخر عن القطيع في الانصراف، قد رفع إحدى ساقية كما يفعل كلب وبال على باب المأوى، تاركاً تلك الرائحة النتنة الراسخة في خشب الجذع المقطوع لعدة أيام كما لو أن الضبع قد حدد ملكية المكان بهذه العلامة.

لم يتخلص سنونو من تلك الرائحة رغم كل الغسل والحلك والمطر والريح إلا بالتخلص من الجذع والإتيان بباب ربما يكون لقن دجاج عشر عليه في إحدى الزوايا مرميًا ومهملاً ومغطى بالأعشاب الميتة صار مرتعًا لديدان أكثر ضراوة من الضباع أخذت تهاجمه في كل الأوقات وهو تطلق صرخات وحشية وتدور حول بعضها عارية في شريط دائري كرقص جماعي خليع لفرقة غجرية مبتذلة انتهت مرة واحدة بنار محقة مررها على الباب كي يحمد كل شيء كساحة

حرب تناثرت فيها الجثث كما رأى قبل عدة شهور على شاشة التلفزيون في مناطق جبلية وسهلية ومستنقعات ومدن وصحراء.

لكن سنونو في الايام التالية شعر بحمى زاحفة صارت تغرقه أحيانا في هذيان يرى خلاله صورا غريبة ووجوها لا يتذكرها وطرقات وعربات قطار ودراجة هوائية طائرة في الهواء، وانقطع عن رسالته اليومية وعن حولات الليلية على الضفة وصارت رائحته جسده مشبعة برائحة موت يقترب وخشى أن تهاجمه لذلك الضباع.

كانت ماريا تغسل وترتب منذ عدة أيام المنزل لحفلة عشاء ليلة عيد الميلاد حتى أنها نظفت الجدار الخارجي العالي الذي يعزل الأسرة وعوالمها الخاصة عن فضاء البلدة، كما أنها نظفت الفناء الدائري المسقف ما عدا كوة لدخول الضوء كما لو أن يعقوب الأرمني أراد عزل عوالمه الشخصية عن الأرض والسماء، وخرجت إلى فناء خلفي صغير ملحق بالبيت للطيور والدجاج ومكان حديقة صغيرة تحتوي على قن فرت منه البعاء اللعينة والتي تشعر ماريا الآن بأنها تخلصت منها أو أنها في مكان بعيد ولم تعد مشكلتها مطروحة عليها منذ انقطاع زيارتها المشؤومة، ونظفت كل شيء. هنا تمر وزة العشاء المقدس هذه الأيام كبديل عن ذاك الديك الرومي المنحرف، وزينت شجرة السدر الملائكية في الفناء الخلفي ذات

الظل الوارف في الصيف التي اقتلتها يعقوب من منزل مسؤول حكومي كبير هرم الآن كان نفسه ينتزع الأم من حضن الطفل الباكى في تلك الليالي الوحشية تحت جدران المطر. قال يعقوب هو يزرع الشجرة في الفناء الخلفي المسيح:(لا يجوز أن تنبت الأشجار البريئة في أرض وسخة)، كما لو انه من أعمق جروحه الداخلية يريد أن يؤكد ان جذوره أعمق وأقوى وأرسع، وأنه يقتل ذكري مريرة ويعيد تصحيح أو مسح الخطايا.

قالت له هاشمية يوما وهو تنظر الى شجرة السدر:(هذه شجرة مباركة يا يعقوب. ذكرت في القرآن" وأصحاب اليمين وما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلع منضود وظل ممدد"). واضافت هاشمية:(أو في سورة النجم قوله تعالى" عند سدرة المنتهى، عندها

جنة المأوى، اذ يغشى السدرة ما يغشى"). رد عليها يعقوب الأرمي: (لكن يقال إن من أغصانها صنعوا أكليل الشوك على رأس السيد المسيح)، فعلقت هاشمية: (لقد شُبّه لهم).

على فناء المنزل الدائري تطل عدة غرف كان يعقوب يحلم أن يكون بيته لأسرة كبيرة من سلالته هو حيث تاريخ الأسرة لا يمكن أن يتلهي به. لكنه رغم كل الجهود والعقاقير والصلوات والأدعية والأعشاب التي ينفعه بها صيدلي الأعشاب الطبية في السوق ورغم كل أنواع النبيذ المهيج واغراءات هاشمية الخفية وصور المحلات الفاضحة وحالات الاستمناء في النهار بعد فراغ السوق وقت الظهيرة، ورغم سحر عظم المدهد الذي قدمته له يوما هاشمية، ظهر بعد ذلك بعدهة سنوات وفي نهاية هذه الأحداث انه عظم

ترقوة لكلب، ورغم كل الدهون المخلوبة من كربلاء والعمارة
والناصرية والسليمانية ونينوى ودهلي ومراكش وجزر الكناري، رغم
كل ذلك لم ينجب غير يوسف الذي يشير منظره الشفقة والرثاء
لأنه سيعيش وحيداً كما عاش هو بلا إخوة في عالم يتداعى فيه كل
شيء، وحمل محفوف بمخاطر كثيرة كمال قال له الطبيب البيطري
مستشاره في كل شؤون الحياة من الصحة إلى قراءة النجوم والذي
كلما صادفه شم منه رائحة عرق الخيل ، لكنه اكتشف متأخراً ان
المشكلة لا تكمن فيه هو يعقوب الأرمني القادر على انجاب جوقة
إنشاد كنسية في حياته لو كانت الظروف على ما يرام، بل في دم
ماريا لكنه تحاوز ذلك بعد أن صارت الجنائز تحوم في سماء البلدة
كل يوم قادمة من جبهات الحرب كأسراب الغربان.

كانت ماريا منهنكة في طبخ الوزة وفي تغطية مؤخرتها التي صارت
تطلق أنغاماً موسيقية ذكرتها بمارشات الحرب في الأيام الأخيرة،
حين اخترقها سيخ حديدي فأخذت شكل رجل مخوزق في الفناء
الخلفي للبيت على نار هادئة وقد أعدت البطاطس المسلوقة
وصلصة بيض وخبز الميلاد من زبيب وفاكهه ومربى التفاح، وزينت
شجرة السرو التي حملها بائع عسل جبلي من غابات السليمانية
بتطلب من يعقوب وصارت الآن مضيئة بالأنوار والشرائط الملونة
التي أبهرت يوسف الذي يقترب من السنة الخامسة، وكان يحلم
برؤية بابا نويل وهو يطلع من مكان ما من المنزل أو يهبط من بين
الأشجار أو أعمدة الضوء في الشارع أو من سقف البيت المغطى
أو من كوتـه الوحـيدة.

كانت ماريا قد وجهت دعوة لبعض الصديقات والجارات من كل
الممل، ومن جهته طرق يعقوب هذا الصباح الباب على هاشمية التي

برقت عيناهما بعزلة موحشة أكثر من أي يوم مضى وطلب اليها الحضور فقبلت بسرور. حين حل المساء واكتملت حلقة الضيوف حول الشجرة المضيئة في الفناء الداخلي الذي تتسلب اليه انوار نجوم بعيدة وامضة، أعطى يعقوب الإذن لهاشمية في بدء الحفل، وحين شرعت في قراءة الآية:(سلام عليك يوم ولدت، ويوم تموت، ويوم تبعث حياً) قبل أن يتلو صلاته، سمع يعقوب خفق أجنحة فوق قبة السقف الداخلي. شم رائحة موت داهم. قبل أن يفيق من ذهوله، جاء الصوت المنفر الفاحش السرييري ليضع خاتمة دنيئة لهذه الليلة المقدسة:(ماريا، بقوه!، بقوه!).

في السكون الضاج والترقب، قال يوسف الصغير وهو يقفز فرحا وبصره نحو السقف:(بابا نويل!، بابا نويل!). وبما ان احدا لم ير

وجه الببغاء المنحوس غير يعقوب، وكما لو تحت الهم الهي منقد، عادته في مثل هذه المواقف المضطربة، قال يعقوب متخدلا صوت مؤمن في لحظة خشوع: (باركك رب، يا ماريا). كانت ماريا تتصلب عرقا وهي تحشرج قبل أن تتهاوى معترضة للضيف: (هذا الجرو في بطني يمزق أحشائي).

كان سنونو المحموم داخل المأوى يرى عبر أستار الضباب والحمى والهديان أشعة الشمس تسقط فوق الأشجار عبر الثقوب المنتشرة على جانبي المأوى الذي انتشرت فيه رائحة عفنة تشير الى تفسخ تدريجي بحسب مدفون، حيا. لكن ضوء الشمس الباهر أمد بطاقة هائلة على الحياة وبرغبة جامحة في الخروج. قاد الدراجة الهوائية عبر الممر الترابي ووصل الى السياج الأخير وصعد لاهثا وهو يضع

دراجته عبر السياج. لم يتمكن أول الأمر، ورأسه يطن بكل أنواع العواصف والأصوات والمشاهد، من ركوب الدراجة، لكنه بعد عدة محاولات وقد حشد الباقي من قوته، انطلق بها عابرا الحقول والطرق والسيارات المعاكسة، وحين أصبح فوق شارع البلدة الرئيس، تعلالت أصوات من الشرفات ونوافذ المنازل ومن خلف واجهات المقاهي الزجاجية : (سنونو عاد!. سنونو عاد!). كان يشعر أن قواه موشكة على النفاد وقد بدأ الدم الحار يسيل من فمه، لذلك حرص على قطع المسافة الباقية بأقصى ما تبقى من طاقة تتلاشى كل لحظة.

فجأة، وأمام الحشود الذاهلة والمبهجة والمنتظرة، تدل رأسه فوق الدراجة كما لو غفا، وظل على هذه السرعة التي تخف في مواجهة ريح باردة قوية انتزعت معطفه الأخضر الملكي وكان مفتوح الأزرار

، كجناحي طائر، وحلق في الهواء، في حين انفصل جسد سنونو
عن الدراجة وظل طائرا كما لو في لقطة في التصوير البطيء، ثم
ارتطم بالأرض والدم يسيل من فمه بغزارة، في حين كان المعطف
يطير مع الريح، حاملا رموزا وعلامات وإشارات قديمة ورائحة
وصور ملدن وأعشاب وبراري وقرى وطرق وجسور وقناطر وغابات
وشواطئ تتلاشى ببطء في ضباب فجر وحشى.